جوركي

جامعاتي

جامعاتي

أو

ثورة الطلبة

تأليف
مكسيم جوركي

تعريب
محمد التونجي

منشورات مكتبة المعارف
في بيروت

My Universities

By

Maxim Gorki

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الاولى ١٩٥٤

صورة المؤلف

صورة المترجم

الاهداء

•

الى الشعب ..

الى الشباب...

الى الطلاب...

— ١ —

سأذهب الى الجامعة

وأخيراً أصبحت على أهبة السفر إلى « قزان » للدراسة في الجامعة ، ولا شيء أكثر من هذا .

ولقد حثني على التفكير بالدراسة الجامعية ، وحببها الى مخيلتي أحد طـــلاب الصف التحضيري ، ويـــدعى « إيفرينوف » . شاب طيب السيماء ، انيق جداً ، له عينان عطوفتان كعيني امرأة حنون . وهو يعيش في اعلى غرفة من البنـاء الذي اسكن فيه مع عائلتي . ولما كان يراني متأبطاً كتاباً يلازمني طوال تجوالي ومسيري ،زاد ولعه بي،حتى انه طلب مني مرة ان اقبل صداقته، وقد كان ذاك . .

ولم يمض كثير وقت على صداقتنا حتى بدأ يقنعني باني ذو ملكة فائقة لطلب العلم ، كان يعلن لي مأربه وهو يرمي بشعره الاسود الى الخلف بحركة ظريفة مرغوبة ، مضخمـاً قوله لزيادة رغبتي ، ويقنعني بان الطبيعـــة قد حبتني نفساً توّاقة الى العلم ، وراغبة بالدراسة العليا .

لم اكن لأعلم في ذلك الوقت ان باستطاعة المرء درس العلوم العالية في الجامعات ، ووضح لي « إيفرينوف » ذلك مراراً ، حتى انه اقنعني بان الجامعة لا ينقصها الا شبان امثالي ، كي تحصل على اسمهـــا ، وبالطبع كان اسم « لونوسوف » مذكوراً في حديثنا كمثال لامع لي .

قال لي ايفرينوف باني يجب ان امكث معه في قازان للمطالعة اثناء الخريف والشتاء كي نتمكن من انهاء برنامج الدراسه الجامعي ، وبعدها اقدم على بضعة فحوص ، ومن ثم تمنحني الجامعـــة حق الانتساب المجاني اليها ، وبعد خمس سنوات ، او ما يقارب ذلك ، سأصبح عالماً في احد العلوم . كل هذه قد هوّنها عليّ ايفرينوف ، وسهل الغاية التي ينشدها من اجلي ، لانـه كان شاباً لا يزيد عن التاسعـــة عشرة من عمره ، ونفسه الطيبة رؤوفة بي ، ثم غادرني صاحبي بعد ان انهى اشغاله .

- ٢ -

جدتي العزيزة

قالت لي جدتي عندما تأهبت لتودعني ، محاولة وعظي بحكم مفيدة :

– لا تغضب الناس يا عزيزي ، كما لا تتأثر منهم ، لان نفسك شديدة الانفعال ، وتميل الى التشاؤم ، ولا تطلب من الناس اكثر

مما يستطيعون .. ليس هذا منك ، انما انت وارث عن جدك هذه النفس المنفعلة .. حسناً .. ماذا كان جدك ؟ .. لقد عاش اعواماً طويلة جداً ، ثم مضى وباد دون ان يشعر به احد . نعم ، ذلك الرجل المسكين . .

ضع هذه الجملة نصب عينيك دائماً .. ليس الله الذي يدين الرجال ، انما هـذا عمل يفعله — تسلية — الشيطان .. حسناً .. الوداع ..

ثم اردفت تقول ، وهي تمسح دمعاتها المتساقطة من مآقيهـا العميقة على وجنتيها المتجعدتين السمراوين :

— وأعتقد اننا لن نتقابل بعد اليوم. ستتجول في البلاد ، تائهاً هنا ، سارحاً هناك .. وانا ساموت . فوداعاً ايتها الروح الفتية.

وبعد هذه الموعظة التي قدّمتها لي جدتي ، لم أعد اراهـا الا نادراً ، وحين انتهى تفكيري الى هذا الحـد ، طرأ على ذهني ألم فجائي أوقر نفسي ، وجعلـــني اشعر باني من المستحيـــل ان أقابل صديقاً صادقاً ، وقريباً حميماً مثلها ، فقد كانت جزءاً من ذاتي في ايامي الماضية ، تلك التي زكتني بمواعظها .

ومن مقعد الفُلك ألقيت نظرة الى جدتي التي كانت منتصبة على رصيف الشاطىء وهي تتألم كألمي ، وتجفف من دمعها بطرف شالها البالي العتيق

ووصلت السفينة الى المدينة نصف التتارية ، والمؤلفـــة من بيوت متلاصقة الى بعضها بشكل غير مرصوف ، قاصداً بيتاً ذا طابق واحد ، منعزلاً عن الأزقة ، يعلو هضبة واطئة عنـد نهاية

زقاق مطبوع بطابع الفقر والمرض ، وبجانب البيت يواجه المرء أرضاً قفراء ، داهمتها الاعشاب اليابسة بكثافة ، فبانت كمنظر متشابك يشبه ثورة لجوجاً . وقد غزت الشجيرات والاعشاب الطفيلية اخشاب المنزل العفنة ، وفي اسفله كهف مظلم ترقد فيه الكلاب والقطط الشاردة ، واحياناً تجعله قبراً لها ومثوى . اني اتذكر هذا الكهف تماماً لأنه كان احد الامكنة لجامعاتي .

كان اهل ايفرينوف أمّاً وابنين ، يعيشون على راتب تقاعدي ضئيل . وشعرت منذ اوائل مكوثي معهم بألم الأرملة اليافعة البائس ، عندما تعود من السوق وتفرد مشترياتها على طاولة المطبخ اذ تواجه صعوبة في امر الطبخ ، كيف يمكنها ان تحول بضع قضمات من لحم ضعيف المادة ، الى طعام دسم سخي ، يكفي لثلاثة اولاد اصحاء ، دون ان تحسب لنفسها حساباً من هذا الأكل ؟

كانت صبورة وقليلة الكلام ، وكذلك عيناها الرماديتان الجاحظتان . وهي بعناد حصان اضناه التعب حتى آخر محتمله ، اثناء جره عربته متجهاً الى اعلى الهضبة ، ذلك الحصان المسكين الذي يعرف انه لن يستطيع الوصول الى القمة ، ومع ذلك فانه يشد حمله بصبر وجلد .

وفي صباح رابع يوم من وصولي ، سألتني الأم بحذر هادىء اثناء مساعدتي لها في بعض امور المطبخ . وقد كان الأولاد نياماً :

— لماذا قدمت الى المدينة ؟

فأجبتها :

— للدراسة . . للجامعة .

عندئذ ارتفع حاجباها ، دهشة ، وتجعدت جبهتهـــا فسقطت السكين من يدها ، وجرحت اصبعها ، فألصقتها بشفتيها لتمنع الدم من ان يسيل ، وتهالكت على كرسي هناك ، وبعد ان اخذت بعض الراحة ، هبّت للتوّ قائلة لنفسها بحدة :

ـ آه ... باللشيطان ! ..

وعندما ضمّدت جرحها بمنديل قذر بعض الشيء أردفت كلامها وكأنها تحاول تغيير دفة الحديث :

ـ انك تقشر البطاطا تقشيراً ممتازاً !

ـ أظن أني نزعت قشرتها بتؤدة .

ثم أخبرتها عن عملي ، على قارب نهري ، واستفسرت هازئة :

ـ وهل تعتقد ان هذا تحضير كافٍ لالتحاقك بالجامعة ؟

لم يكن لي في تلك الأيام كثير خبرة عن اصول الفكاهة ، فاعتبرت تساؤلها جدياً ، وشرحت لهـا بعض الأهداف التي سوف تؤهلني للدراسة حين تفتح أبواب العلم أمامي .

فتنهدت قائلة :

ـ آه . نيقولاي .. نيقولاي ! .

قالت كلمتها عندما كان نيقولاي داخلاً إلى المطبخ كي يغتسل . كان شعره مشعثاً وعيناه ناعستين ، وكتفاه منهوضتين ، فقال :

ـ أماه .. أعتقـــد أن بعض أقراص العجين ستكون ممتازة جداً .

فوافقت الأم قائلة :

ـ طبعاً يا بني .

ولشدة رغبتي في أن أعرض معلوماتي في الفنون المطبخية ، أبديت ملاحظة ، بان اللحم ليس من الصنف الجيد لهذا النوع من الطعام . وأضاف هو على ذلك أن كمية اللحم غير كافية لطبخة كما يريدها هو .

وعند سماعها ذلك مني ومن نيقولاي،غضبت جداً ،ووجهت لي بعض الكلمات القاسية حتى ان اذنيّ بدتا لي وكأنهما بارتعاش راجف ، فقذفتْ كومة الجزر جانباً وغادرت المطبخ ، فغمزني نيقولاي شارحاً الموقف :

- انها في أسوأ اطوارها .

وجلس جلسة مريحة على مقعد هنـــاك ، وأخبرني أن النساء أكثر عصبية من الرجال ، وهذه هي طبيعة المرأة . ولقد أثبت ذلك عالم سويسري بشكل لا يقبل الريب ، واذا لم تضيع عليّ ذاكرتي شيئاً ، رجل اسمه « جونز ستوارت ميل » الذي سبق وقال شيئاً من هذا القبيل .

كان نيقولاي يتمتع كثـــيراً بطريقة تعليمه إياي ، ليغتنم الفرص السانحة ليحشو – ما استطاع – في دماغي أشياء من الحكم النافعة ، والتي تصبح الحياة بدونها – بكل تأكيد – مستحيلة وصعبة ، وكنت ألتهم كلماته بكل اشتياق ورغبة .

وبعد مدة كانت الاسماء « فوكو » و « دولاروش فوكو » و « دولاروش فوكولان » تنتصب جميعاً في مخيلتي . ولم يكن باستطاعتي أن أتذكر ما إذا كان « لافوازييه » قـــد قطع رأس

« ديو رييه »او ان العكس أصح . صديقي، ذلك الشاب اللطيف قد صمم بكل إخلاص أن يجعل مني شخصية فذة ، ولقـد وعدني بذلك سراً ، ولكن لم يكن لديه المتسع من الوقت ، والشروط اللازمة للسير بتثقيفي سيراً متواصلًا صحيحاً .

تلك هي انانية ولا مبالاة بعض الشبان التي منعتـــه من الاقدام أو من أن يرى – على الأصح – كيف كانت أمه تنهك نفسها لتتلافى نقص المال لديهم، وكذلك أخوه فانه أقل ملاحظة على أمه منه ، كما أنه طالب بليد كسول. اما أنا فقد كنت على اتصال دائب بالمطبخ ، بين تنظيم وطبخ، لذا كنت ألاحظ جهود المرأة اليائسة بوضوح ،تلك الجهود اليومية لملء معد أولادها ، ولاطعام شاب غريب ذي مظهر غير خلاب ،مشاكس ، وأعماله غير مرغوبة .

وبالطبع ، كل لقمة كنت ازدردها هنا ، ثقيلة على ضميري صعبة البلع ، فعملت في مكان بالمدينة . وبدأت أترك البيت باكراً قبل الطعام ، وأبقى بعد العشاء بعيداً عن المنزل حتى اتأكد من انتهائهم من العشاء . أما في الايام الماطرة ، فاني كنت اقضي هذه الساعات لاجئاً في كوخ المنزل المهجور .

كنت أجلس هناك بين القطط والكلاب الميتة ،اتنفس الروائح النتنة ، وأتسمّع إلى المطر الهاطـــل ، والى الريح التي تصل الى الآذان ، وهناك فهمت أن الجامعة حلم هازىء بي، وأن الأجدر بي أن أرتحـل إلى بلاد الفرس ، مصوراً نفسي كساحر ذي لحية رمادية ، خالقاً الوسائل لانماء القمح والبطاطا التي تزن كل واحدة

منها وطلّا .

لقد سبق وتعلمت كيف أحلم بالمغامرات الغريبة والأعمال العجيبة ، فكان هذا عزاء لي في ايام الحياة الشاقة . ولما كانت هذه الحياة شاقة فقد برزت وأصبحت خبيراً باحلام اليقظة هذه ، ومن طبيعتي أنها لا تطالب بالمساعدة ، ولم أعز آمالي المحطمة الى الحظ اليائس انما لي عقيدة سمحة لا تقبل الاستسلام في اي حين ، وكلما حطت الأيام بي في الشقاء ، كلما أصبحت أشعر بنفسي تعتلي صارمة قوية ، تجيب بحكمة أكثر ، وتأكدت تماماً بأن الرجل يخلق بالمقاومة التي يجابه بها محيطه وبيئته .

كنت أذهب إلى « الفولغا » كلما اشتد بي الجوع ، واوسع شروره في احشائي ، حيث باستطاعة المرء ، وبكل سهولة ، ان يكسب خمسة عشر او عشرين كوبيكس . وبين هؤلاء البحارة كنت أشعر وكأن نفسي قضيب من حديد ، وضع على فحمات محرقة متأججة ، وأرى من خلال نفوسهم وكأن العالم ألعوبة ، حيث غرائز الرجال قاسية ، وجشعهم لاكتساب العيش عار وبغير لثام ، ويأس هذا البشر ضد الحياة كان يحببهم الى نفسي فأتقرب منهم ، وتعجبني منهم كلماتهم الساخرة نحو هذا العالم . وان عدم اهتمامهم بنفوسهم ، وحياتي التي عشتها في ذلك المنزل الفقير حضتني على الانغماس بكليتي في عالمهم اللاذع الخشن . وليست قصص « برت هارت » والقصص الرخيصة غيرها التي قرأتها لتزيد عن حياة هؤلاء البشر .

- ٣ -

عاشق النساء

وقـــد تعرفت على اشخاص عديدين منهم «بوشكين» اللص المحترف المسلول ، والذي كان سابقاً يدرس في دار المعلمين ، كان يحقد على مدرسته لأنه يلاقي فيها كل صفع وضرب بـلا هوادة ، وكثيراً ما ويخني مدعياً العزة والحكمة إذ يقول .

ـ ما لهذا قد طغى على نفسك وجعلك كفتاة يافعة ساذجة ؟ أتخشى ان تفقد شرفك ؟ شرف العذراء ثمين باهظ لا يعوّض ، أما من ناحيتك فـــلا يخالجك الشك .. ان الثور الشريف ، بامكانه إملاء معدته بالحشائش التي يقضمها من الارض ، اما أنت ، فثقيل أنيّ نزلت .

كان « بوشكين » قصير القامـة ، ذا شعر احمر حليق ، وانه بأفعاله وحركاته يحاكي الهرة الصغـيرة . يضمر لي بعض الحب وكذلك الحظ الجميل والسعادة . واستطاع ببعض الكتب الراقية التي قرأها ان يقوي من ذكائه ، واحب كتاب إليه كتاب اسمه « الكونت دي مونت كريستو » الذي اعجب به أيما اعجـــاب وعنه يقول :

ـ ان لهذا الكتاب نفساً تواقة ، وهدفاً سامياً .

وهو محب للنساء ، مكثر الاحاديث عنهن ، وحـين يسمع قولاً جميلاً عنهن يندفع بكليته ، كاندفاع العابد من صومعته حين يذكر امامه اسم الله ، ويتلمظ بشفتيه بشغف باذخ ، كأن غريزته

الجنسية تنتفض بجسمه الأهيف الضعيف . وطبعاً لم تكن هـذه الحركات برغوبة ، بل ان البدن ليقشعر لها حقـارة ، ورغم ذلك فاني أستمع - مأخوذ اللب - الى حديثه الشيق ، وانا موقن تمام اليقين من صدق قوله . كان يتكلم بصوت كأنه نغـــم موسيقي ساحر ، بوجنتين ورديتين وعينين سوداوين تتأججان ببريق الحب :

- النساء . . النساء . إني مستعد لتسهيل المستحيل من اجل امرأة ، انها كالشيطان تفعل الخطيئة ، ولا تدري انها الخطيئة . عش بالحب يا صاحبي - ليس في الحياة أعظم منه واهون ؟

كان ذا موهبة رائعة لسرد الأقاصيص العجيبة ، ويؤلف ايضاً مقطوعات غنائية للموسمات ، راثياً لهن الحب المتعثر البـاهت ، وأكثر أغانيه حول مدن نهر الفولغا . ومن بين هـذه القصائد ، قصيدة منتشرة حتى في أقاصي البلاد وهي :

« ترى الفتاة البسيطة الجميلة الفقيرة »
« مرتدية ثياب حياتها البدوية العادية . . »
« أي انسان سيتزوج مثل هذه الفتاة ! »
« من الصعب ، بل من المستحيل فعل ذلك . »

- ٤ -

في ليلة ظلماء

الشخص الثاني كان « تروسوف » عذب الهيئة ، يرتدي بزة لها

مسحة من جمال وذوق ، له اصابع رفيعة ، تشبه اصابع موسيقي .. سريع الانفعال ، يود ان يحبني ، ويلاطفني بصدق . كان صاحب حانوت لتصليح الساعات في المنطقة « الاميرالية » ولكن عمله الحقيقي هو ... بيع البضائع المسروقة ، وكلما يراني يقول لي محاولاً إقناعي :

— لا تدع نفسك تنساق الى حياة اللصوصية يا « مكسيميتش » ..

ثم يسكت ، ليعيد كلامه من جديد وهو يداعب لحيته الرمادية ، ناظراً نحوي بمهارة خارقة :

— نعم . ليس هـــذا طريقك ، فاسلك غيره ، ولست من الماديين عبيد المال .. انما انت شاب مثال في المعنوية .

فأجبته بتساؤل :

— ماذا تقصد بكلمة « المعنوية » ؟ !

— لا تكن أنانياً تحسد الآخرين على مهنهم ، انما كن كالمتطلعين للعلم دفين إليه .

فأتساءل ، فيما إذا كان وصفه لي ينطبق بعض الانطباق عليّ !؟ إني حقاً غيور أحسد « بوشكين » على ذلاقته في الحديث ، وبلاغته التي تشغف السامع ، وإني أتذكر الآن أولى مغامراته الغرامية ، التي كان يوفق فيها أيّما توفيق :

« في ليلة حجب الظلام نجومها ، وانطفأت من القمر أنواره ، رحت مندفعاً إلى بيت في مدينة « زفيازشك » المطبوعة بطابع الفقر المعدم . كان ذلك في خريف تشرين الاول وقتما أخذ المطر

في ذرّه الناعم الخفيف ،وشرعت الريح تئن أنّات الأغاني التتارية عند ما يُرثى شخص متألم . . .

. . في تلك الوهلة قدمتْ بخفة الظل ،ورقة الملائكة ، وردية اللون كأنها بزوغ الشمس ، في عينيها طهارة ، وفي نفسها روح خفيفة . وهي تقول :

– يا حبيبي العزيز .

كان صوتها يرن في فؤادي بخلجات صادقة :

– لم أخطىء معك .

كنت أعرف أنها كاذبة ، ورغم هذا فانيحاولت تصديقها مع مع أن قلبي يكذبها ، ويهتز الجسمان بموسيقى خفيفة ويلتصقان ، وترتفع يده ليلمس مافوق القلب . . كان السكون يشملها ، ومع ذلك فالحياة ملء أشداقها ، يستعذبان الحب ، ويصدران أعذب الاقوال كأنها بلبلان غريدان » .

وكنت أحسد « تروسوف » ايضاً الذي كان يقص القصص الساحرة عن سيبريا وخيفا وبخارى ، ويقص ايضاً الأقاصيص الفكاهية والمسلية – رغم مرارة عيشه – عن حياة الكنيسة ودرجات الكهنوتية . وقد اعلن في احد الايام بشيء من الغموض عن القيصر « اسكندر الثالث » قائلًا :

– يا له من قيصر ماهر في اعماله ! .

وقد تشبّه «تروسوف» بأحد الشريرين الذين ينهون المسرحية بدراما عنيفة حتى يكسبوا لقب البطـــل ، وتصبح نفوسهم من ذوي المعالي ! .

- ٥ -

النهر الحزين

في ليلة ليلاء ، غارقة في الظلام قطع هؤلاء الاشخاص وامثالهم نهر قازان ومدوا السماط ، وشرعوا في اللعب مع الكاس والطاس ، والاحاديث عن مصاعب الحياة ، وعن غموض العلاقة بين الانسان واخيه الانسان ، ولكن جل حديثهم كان حول امور النساء وجمالهن ، بشيء من الحبث اومن الألم – وبين اللحظات يتسللون خلال الاشجار حيث الخوف يعمق في قلوبهم والظلام يكتنفهم .

قضيت ليلتين متواليتين معهم تحت سماء كالحة ، تضيئها نجوم باهتة . وكنا نستلقي تحت شجرة شجراء مستدفئين بظلها ، وعن قرب تحت ظلام رطب كانت اضواء الأفلاك تتسلل على سطح نهر الفولغا وكأنها عناكب ذهبية تمور .

وعلى طول فسحة الشاطىء الاسود خيوط من الاضواء المبعثرة تتلاعب من نوافذ وحانات قرية «أوسلن» الغنية ، وعجلات القوارب التجارية تلتطم على الماء بصوت قاتم عاتم ، تخبط في ماء النهر من دون هوادة ، وتسمع عند آخر الشاطىء أصوات النوتيين الخشنة كأنها عواء ذئاب .

وفي مكان آخر من الشاطىء كانت المطرقة ترتطم على السندان ومعها نغمات لموسيقى حزينة تنبعث من وراء الامواج ، وكأنها روح امرىء تنطفىء رويداً رويداً وترمي على القلوب رماداً حزيناً .

كان الحزن الذي امتلكني اروع حينما سمعت أحاديث رفاقي المنطلقة عن نقدهم للحياة ، وعما يحيط بقلوبهم من أسى وهم يدخنون أو يشربون من آن إلى آخر باعتياد ، وبشيء قليل من النهم ، «الفودكا» او «الجعة» ، يحاولون تناسي مصاعب آلامهم ، ورهبة ما تحتوي عليه ذاكرتهم .

وحين يأتي دور أحدهم في الكلام يقول هذه الجملة :

– حسناً . لقد حدث معي مثل هذا .

وعندما ينهي قصته ، كان الآخرون يدمدمون موافقين ، ورجل بينهم يقول :

– نعم . أشياء من هذا القبيل تحدث كثيراً .

«حدثت .. ستحدث .. عادة تحدث .. من الممكن حدوثها» .

كانت هذه الكلمات تتلاطم في أذني ، حتى بدا لي ، كأن هذه الليلة هي آخر ساعات حياتهم . تسير الحياة على وتيرة واحدة ، حدث أو سوف يحدث أكثر من ذلك .

– ٦ –

المأوى التاريخي

كادت هذه الافكار تودي بي الى نسيان صديقيّ « بوشكين وتروسوف » أو بالاحرى لأن أسلك طريقهما في خبرة الحياة .. والامران اللذان فقدتهما في خضم أيامي ، واللذان كان بامكاني

ان أسمو بها ، وهما كمال الثقافة والاخلاق السامية ، حطا بي من علٍ ، وافقداني طريقي ، او هدياني لأن اواصل السير الى جانب صاحبي .

حين اجوع ،وأشعر بلذعة القلة أحس وكأني قادر على اقتراف الجريمة او ضد « المؤسسة الملكية الخاصة المقدسة !» ولكن حماسة الشباب العاطفية هي التي حولت مأربي ، والتي كدت أركب سبلها . وكنت ارى قصص « برت هارت » الانسانية والاجتماعية المختلفة التي قرأتها كثيراً ، واعجبت من نفائسها أيما اعجاب .

كنت أشكل طبقة أخرى من الأصحاب ، وأتلقى التأثيرات الدافعة منهم .. طلاب في السنوات الأولى من جامعاتهم ، وغالباً ما كانوا يتجمعون في الخربة القريبة من « بيت ايفرينوف » ليلعبوا لعبة « الكولوتكي » . ومن بينهم شاب متحمس يدعى « كوري بلتيموف » له شعر أزرق وأسود كشعر اليابانيين ، ووجه بُعثرت عليه نقاط سوداء صغيرة ، وكأن وجهه قد دُلك بالبارود . وهو ماهر في لعبه ، لا يردعه رادع عن الملعب ، ذو نكتة عذبة في حديثه ، وهو يشبه عباقرة الروس ... ذو ملكات عديدة ويرضى بما وهبته الطبيعة دونما تعب او نصب . كان من عشاق الموسيقى ، موهوباً بأذن حساسة وفهم بجاهل الموسيقى .

يعزف على « الكوسلي » ... وعلى « البلالايكا » وعلى « الأوكورديون » ، ورغم ذلك — وهو يجيدها — لم يفكر في ان يرتقي الى آلات اخرى اجمل واصعب . ومع ان ألبسته رثة

وقميصه ممزق ، وسرواله مرقّع ، وحذاؤه المتهدل على كعبيه . . . تبدو كلها جميلة تماماً حين يلمع ذكاؤه ، ويبين عقله ، وتنمو حركاته الخفيفة على هيكله الهزيل .

كان يبدو ، وكأنه مريض قد عوفي من المرض ، او اسير اطلق سراحه ، فغدت كل الاشياء التي يراها جديدة الى نظره ، حديثة العهد به ، يثور ويسخط لأهون الامور ، وتراه يحوم بين صحبه وكأنه حشرة تطن . وحين علم ان حياتي تشابه حياته بعض الشيء ، واني بعيد كل البعد عن الاطمئنان ، حاول ان يفهمني بأنه يحبني ، وقد عرض علي ان اقيم معه ، وادرس حتى اصبح معلماً في قرية .

وهكذا وجدت نفسي في « الماروسوفكا » المأوى الغريب التاريخي الذي يعيش فيه الطلاب ، انصاف الجائعين ، وعدد من المومسات ، اضف الى ذلك اشخاصاً من حطام الدنيا قدموا من اقاصي الامكنة ، ويبدو لي انهم انما يعيشون بسبب من قلة الموت . .

— ٧ —

العالم المسلول

كان يقيم في غرفة صغيرة تحت السلم شاب يدعى «برتنيوت» ولا يمتلك غير طاولة واحدة وكرسي واحد . وهناك ثلاث غرف تطل الى جانب هـــذا البناء ، اثنتان للمومسات والثالثة لمعلم رياضيات مسلول ، كان سابقاً طالباً في احد الاديرة ، يكاد طوله

الغريب يرعب . وعلى جسمه وبر حيوان احمر ، اما ثيابه فممزقة بالية تكاد لا تستر اضلاعه المعروقة البارزة العظم .

حين يراه المرء يقلم اظفاره بأسنانه ، يعتقد انه لا يملك طعاماً غير هذا ، وهو دائماً دائب على عمله ليل نهار ، لا يتوانى وهلة واحدة ، يعمل في علوم الحساب ورسومه ، كما كان مستمراً في سعاله البحيح العميق ، الذي يهزه هزاً . وكانت المومسات يخشين العدوى منه ، ولكنهن — ومن اجل الشفقة — يضعن له قرب بابه خبزاً وسكراً وشاياً ، فيلتقطها بلهث مميت ، كأنه حصان أضناه التعب . واذا نسين — او لسبب ما — ان يقدمن لهقربانهن يقف عند عتبة غرفته ، ويصرخ بصوت أليم :

— طعام .. طعام ..

كانت عيناه الغارقتان في هوة مظلمة تبرقان كبريق المعتوه الذي يظن انه نال ما تمناه . وقد يزوره احدب بشع الهيئة ، ذو رجلين مقوستين وشعر رمادي ، على انفه المتورم نظارتان طبيتان غليظتان ، ولا ترى الابتسامة تفارق شفتيه او تنحي من فمه ... يجلسان وحدهما بعد ان يوصدا الباب . وقد استيقظت ذات ليلة على صوت المعلم فسمعته يقول وهو يزأر :

— اني اقول حقاً ... الهندسة قفص ، انها سجن .. نعم انها فخ ..

فاجابه الأحدب المشوه بكلمات لم افهمها لغرابتها وخفوتها ، ثم سمعت المعلم يردد :

— اغرب عني ، او فاذهب الى الجحيم ..

وفيما كان الزائر يتراجع وسط القاعة ، كان المعلم يتأجج غضباً فتارة يلف نفسه بالمعطف واخرى يشد شعره المشعث ويهتف قائلاً:

ـ ان اقليدس معتوه ، مجنون ! ، سابرهن لك ان الله اكثر قدرة من هذا اليوناني .

ثم يدخل ليختفي بعد صفعه الباب . ولقد اكتشفت ان هذا الرجل يحاول اثبات وجود الاله بواسطة الرياضيات العليا ... ولكنه مات قبل ان يصل الى هدفه ...

كان بلتيموف يعمل في مكتب جريدة كمصحح مطبعي ليلي ويربح من هذا العمل احدى عشرة كوبيك عن كل ليلة. وبامكاننا العيش من هذا الوفر حتى ولو لم اشتغل انا ، اذ يكفينا اربع أوقيات خبز ، وما يكفي اثنين من الشاي ، وثلاثة من السكر .

إن طلبي للعلم كلفني جهداً شاقاً ، وثباتاً مضنياً ، لأن علم الأجرومية بابحاثه المتفرعة ، عويص الفهم في اللغة الروسية ، وبعد كل هذا الكلال علمت مؤخراً اني وان نجحت في دراستي كمعلم لقرية ، فلن اعين لسبب صغر سني .

كنت وبلتيموف في نفس الغرفة الحقيرة . هو ينام فيها في النهار ، وانا في الليل ، وعندما يعود الى البيت باكراً وقد هدّه العمل الليلي ، وشحب لونه ، وغارت عيناه في سهو عميق تعب ، أهرع الى الحانة لأجلب له بعض الماء الساخن ، وبعدها نتناول افطارنا من الخبز والشاي قرب النافذة .

من طبيعة كوري انه يطالع الجريدة الصباحية ، ويحفظ

الاشعار الفكاهية التي يكتبها محرر سكير ويوقع باسم « الملحوس الاحمر » ، غريب في فهمه الحياة ، ومعالجته لأمور الدنيا – هذا ما بدا لي – كما كانت المرأة « كالكينا » ذات الوجة السمين ، والثياب النسائية القديمة .

لقد استأجر من هذه المرأة مسكنها الصغير تحت السلم . ولما لم يكن لديه المال الكافي ليدفع لها الأجرة ، كانت تسترحمه ليغني لها الاغاني العاطفية ، أو ليعزف لها بعض الموسيقى ، ونفسه حقودة عليها .

كانت في السابق تعمل في « كورس الاوبرا » ، أي منذ اكثر من عشرين عاماً ، لهذا فقد تقدر اللحن والملحن ، وليس بالغريب عليها ان تبكي وتركع امام موسيقى كوري بدموع حرى ، وتسيل على خديها القرمزيين المنتفخين – علامات الادمان والشراهة – فتمسح الدموع من مآقيها بأصابع متورمة ثم تعرك أصابعها بمنديلها القذر . فكانت تهتف متنهدة : آه كوري ، كوري ! . . انك فنان حقيقي ؛ آه ! لو كنتَ اجمل من هذا ؟ لكنت زوّجتُكَ – كما أزوّج كل الشبان أمثالك – من احدى النساء اللائي سئمن الحياة وحدهن .

أحد هؤلاء الشبان – الذين تصطاد لهم كالكينا زوجات – كان يعيش على السطح وهو شاب ، ذو قامة متوسطة وصدر عريض وخصر اهيف ، وقدمين صغيرتين كأقدام النساء ، ورأس أسود يضيع بين كتفيه . له عينان خضراوان واسعتان ، وجهه شاحب ، وشعره جعد احمر لا حياة فيه ولا نظام .

ومع ذلك فانه نجح – بـدراسة مجهدة وفائقـة -- رغم ارادة والدته ، والتحق بالجامعة . وقد اكتشف ان في حنجرته صوتاً قوياً ناعماً موسيقياً ، ففكر بتعلم الغناء .

اصطادت له كالكينا احدى (زبائنها) معتمدة على هذه الملكة التي يتحلى بها ؛ امرأة غنية من طبقة غنية ، عمرها يناهز الاربعين ، لها ابن في الصف الثالث للجامعة وابنة في عامها الدراسي الاخير . كانت المرأة ضخمة ، وصدرها متنفّخا ، تنتصب به كأنها الجندي . ولها وجه انعدمت فيه تقاطيع الحياة وكأنه وجـه راهبة ، تغرق عيناها الرماديتان في لجة عميقة مظلمة . تلبس السواد دائماً ، وتحلّي رأسها بمنديل حريري من طراز عتيق ، وتجمّل أذنيهـا بقرطين ذوي احجار خضراء سامة .

تأتي دوماً في منتصف الليل لتبحث عن حبيبها المنشود ، وقد تأتي باكراً . وكنت اراقبها عن عمد وهي غارقة في الظلام تغدو وتروح في تأنقها البشع ووجهها المخيف . لا نستطيع ان نسميهـا « قبيحة » ولكن مرضها – وهو ضغط الدم الزائد – هو الذي يشوهها .. وكان بليتموف يقول لي :

– انظر ، انها تشبه المجنونة في حركاتها .

ورغم كل المساعي التي تبذلها ، كان الطالب يكرهها ؛ وهي تلاحقه دونما ملل . فكان يقول بعد ان يكرع بعض الكؤوس ، وفي قوله أنّة محرقة :

– اني رجل بائس يا صاحبي . لا اريد الغنـاء ، أنا بشع ، لن يسمحوا لي ان أقرب المسرح أبداً بوجهي هذا .

فينصحه بلتيموف :

ـ دع عنك هذه الخزعبلات .

ـ أعرف أنها ترّهات ، وأعرف انها بشعة ولكني آسف لها . لا أستطيع رؤيتها .. آه لو كنتما تدريان كم هي ..!!.

كنا نعرف ما تعمل ، وكم سمعناها ليلًا وهي واقفة عـــلى درجات السطح تسترحمه قائلة :

ـ رحماك أيها القلب ، رحماك .

كانت صاحبة مصنع ضخم وتملك الاطيان والخيول ، وتقدم «الروبلات» للمساعدات المالية . ومع ذلك فانهـا تستجدي فتاتاً من الحب من هذا البائس المسكين .

بعد ساعة الافطار يغرق بلتيموف في نومـــه ، وأذهب انا باحثاً عن عمل ، ولا أعود إلا في ساعات متأخرة من المساء ، أي لما يحين وقت ذهابه الى المطبعة . وإذا اشتريت طعاماً ـ من خبز أو لحم مقدّد ، أو ربما أمعاء مسلوقة ـ نتقاسمه على عجل ليأخـذ حصته معه .

وبعـــد أن يذهب ، كنت أتجول ـ متسلياً ـ حول إيلمـــا روسكا ذلك القصر العظيم ، وأراقب بفضول حياة هؤلاء الاغنياء ، تلك الحياة الجديدة التي لم اختبرها بعدُ . فترى البيت يعجُ بالساكنين . وكانت الروائح النتنة تنشر في ارجاء القصر ، وفي كل ركن تختبىء بعض الحشرات ، اما الحياة فيه فـانها دائبة من دون توقف . فآلات الخياطة وتمارين البنات وهن يعملن على المسرح ، وصوت الطالب الناعم ، وصراخ أحد الممثلـين المزعج

الذي أتلف حنجرته بالمشروبات الكحولية ، وأصوات الموسات الهستيرية الصاخبة . عندئذ كانت هذه الفكرة الطبيعية تنبثق من عقلي لأقول :

– وما معنى كل هذا !!..

– ٨ –

هذا العجوز

يتجول رجل في القاعة دون أي هدف . شعره احمر بلون الجزر ، وفي قمة رأسه تنتشر صلعة لماعة ، وبطنه تشبه الجرة ، وفي وجهه فم ضخم فيه أسنان صفراء كأسنان الحصان ، لذا فانه يلقب بالحصان الجزري اللون . دائماً يتشكى من بعض الاقارب التجار في سيميرسك ، وكان يعلن لكل انسان يودُّ الاصغاء اليه :

– لا أمل في حياتي إلا أن أربح هذه الدعوى ، وسأخرب بيوتهم ، وسأظل كذلك حتى انفق آخر ما أملك . وسأجعلهم خاوي الوفاض لا يملكون شروى نقير ، يعيشون على الهبات . وبعدان يعيشوا متجولين ثلاث سنوات سأعيد لهم كل ما كسبته منهم . نعم ، سأعيد لهم كل شيء ، واقول لهم : اذهبوا الى الجحيم يا أوغاد . هذا ما أنا فاعله ..

فيسأله بعض السامعين :

– أليس لك في الحياة هدف آخر ؟

ـ كلا. ولقد كرست كل حياتي وقلبي لهذا، ولن افكر في سواه.

كان يقضي أيامه بين المحاكم العالية والمحلية ، أو مكتب المحامي ، وعند المساء يعود الى بيته محملاً بالاكياس والجرادل والزجاجات . وفي غرفة قذرة ذات سقف وارض فقط كان يحيي حفلات صاخبة ، داعياً الطلاب والمومسات وكل شخص يريد طعاماً او شيئاً من الشراب ، أما هو فلا يشرب غير « الروم » حيث تندلق الزجاجات على ثيابه وعلى الخوان امامه فتصبغها باللون الأرجواني القبيح . وبعد بضعة كؤوس لا يلبث ان يصرخ :

ـ يا طيوري الصغيرة ، أني أحبكم لأنكم الطبقة الشريفة التي اعتبرها . أما أنا فرجل ساقط وتمساح . أحاول هدم بيت اقاربي بالذات ، وانني لفاعل . نعم هذا هو املي في الحياه ، ولكن !!

ومن عينيه الباكيتين كانت دموع المدمن تتحدر على وجهه الغريب ، فكان يمسح دموعه من على وجنتيه ليجففه على ركبتيه. كانت سراويله دائماً مغطاة ببقع شحمية ، ويصرخ :

ـ أية حياة تعيشونها !.. جياع يكاد البرد يقتلكم ، وظهوركم مغطاة بخرق بالية . أهذا حق ؟ ماذا يمكنكم ان تتعلموا وانتم على هذه الشاكلة تعيشون؟!. آه لو يعرف القيصر كيف انتم تعيشون!

وكان يخرج من جيبه حفنة من الورق اللماع ويكرر :

ـ من منكم بحاجة الى المال ؟. خذوه إن أردتم .. ها هو يا أخواني ، خذوه .

فتسرع بنات المسرح والمومسات ، محاولات انتزاعها من

قبضته ذات الشعر الكثيف ، فيعترضهن قائلًا :

– انها ليست لكنّ ، انها تخص الطلاب .

ولكن الطلاب يأبون اخذها . فيجيبونه :

– ليذهب مالك الى الجحيم .

وفي احدى المرات التي كان فيها سكراناً جلب حفنة من اوراق العشر روبلات لصاحبي بلتيموف وقد كوّرها بشكل كرة مرصوصة ، وقذف بها على الطاولة قائلًا :

– الا تريدها ؟ .. انها لك .

ثم انحنى الى الامام وهو يشهق بشكل جنوني حتى إنه ارغمنا على قذفه بالماء ، وارغامه على شراب الروم . وعندما نام حاول بلتيموف ان يمسد المال المكوّر ، ولكن كان ذلك مستحيلًا إذ كانت الاوراق المالية مضغوطة بقوة وقد أرغمنا على وضعها بالماء برهة حتى استطعنا حلّها بحذر .

كانت غرفته قذرة مملوءة بالدخان ، ونوافذها القاتمة تخلع على الجو كآبة ، وكأنها احلام مزعجة ، وكان دائماً يصرخ في صخب ، فكنت اسأله :

– ما الذي حبب اليك المعيشة هنا ؟ .. لماذا لا تسكن في فندق نظيف ؟

– يا عزيز قلبي .. يا روحي ، إن روحي تشعر بالدفء معكم .

فيجيبه احدنا

– نحن مثلك يا « ناك » ، اني اشعر بمثل شعورك ، فلو كنت في مكان آخر لما استطعت العيش .

ويتقدم ناك من كوري ويرجوه.. فيبدأ كوري الانشاد ، وآلته الموسيقية على ركبتيه :

« آه .. انهضي ايتها الشمس الساطعة
واغمري السماء بلونك الاحمر » .

كان صوته الحنون يخترق القلوب ، والسكون منسدل على الغرفة ، والجميع صامتون وكأن على رؤوسهم الطير ، مصغون إلى أنّات وتر الكوسلي ، وتصرخ بلايكا :

ـ كم هذا جميل !! .. يا للعنة .

كان يلعب بلتميوف دور المـــلاك الرحيم بين سكان البيت الغريبي الاطوار . إذ كانت روحه تشوبها حيوية الشباب ، تسطع دائماً بفكاهات مرحة واغانٍ جميلة . كان في العشرين ولا تزال قامته كالطفل ، ورغم ذلك فقـد كان يتكلم بجسارة عن ضعف العدالة ، وكان سكان البيت ينظرون اليه كأنه ملهمهم حين يئنون تحت عبء الحياة الصعب . والنـاس قسمان ، قسم طيب يحبه ، وقسم يخافه ويخاف ان يخافه ، حتى الشرطي نيكي فوريج يبتسم له ابتسامة كاذبة شحيحة كلما صادفه .

ـ ٩ ـ

المطبعة السرية

تمتد باحة الماروسوفكا إلى شارعين ، الاول « ريبنور رياض سكايا » والثاني وهو أبعد من الاول قليـلاً وأعلى « ستاروكو

رشيتشنايا » . وفي نهاية الشارع على مكان مرتفع يقف – لمراقبتنا – نيكي فوريج .

هذا الشرطي طويل القامة ، عريض المنكبين ، وعلى صدره أشرطة وأوسمة لامعة ، تبدو على وجهه المهـــارة ، وعليه ايضاً ابتسامة حلوة كالعسل ، وعينان عميقتان . وكثيراً ما يطل بوجهه العبوس على بوابتنا ، ويتقدم ببطء متلصصاً من كل نافذة كأنه حارس في حديقة حيوانات يدور على أقفاصه .

وقد أوقف هذا الشرطي اثنين من جيراننا .. « سمير ينوف » وهو ضابط بذراع واحدة . و« موراتوف » وهو جندي عادي . كلاهما اشترك في حملة آخالتيكي تحت قيادة سكوبيليف ، وقد حملا وسام القديس جورج ، واتهما مـــع زوبنين وفزيانكين ، وكريلوف وآخرين بمحاولة تأسيس مطبعة سرية . ولهذا فقد حاول مولوتوف وسمير نوف أن يسرقا بعض أحرف الطباعة من مطبعـة « كليو شنيكوف » الكائنة في أكثر شوارع المدينة نشاطاً ، ولكن ألقي القبض عليهما هناك .

وقد القى رجال الدرك في إحدى الليالي القبض على رجل اسمر اللون طويل القامة لقّبته بالبرج المتجول . وقال لي بلتيموف وهو يرمي بشعره الاسمر الى الخلف بتأثر ظاهر :

– انتبه يا مكسيميتش .. يا للشيطان ، عجـل بالهرب قدر استطاعتك .

وبعد ما شرح لي إلى أين يجب أن أهرب أضاف :

– انتبه فقط ، ولربما يحوم الجواسيس حولك الآن .

سرت تماماً من هذه البعثة الغامضة ، وانطلقت بسرعة الطير الى حي الاميرالية ، وهناك في حانوت نحاس مظلم وجدت شاباً ذا شعر مجعد ، وعينين زرقاوين آية بالجمال ، يشتغل بصنع مقلاة نحاسية — ولا تبدو عليه سيماء العمال الكادحة !

وفي الركن البعيد يجلس رجل مسن ، شعره الابيض مربوط الى الخلف بخيط من الجلد ، يصلح صنبور الماء ، فسألته :

— هل من عمل هنا ؟ ..

فأجاب النحاس بشيء من العنجهية :

— نعم ، عمل كثير ، ولكنه ليس لك .

والقى الشاب علي نظرة سريعة ، ثم أحنى رأسه على عمله من جديد . وبسرعة غمزت قدمه بقدمي ، فاستدار نحوي بعينيه الزرقاوين بذهول وغضب ، ممسكاً مقلاته النحاسية من مقبضها ، وكأنه على وشك ان يرميها على رأسي ، وعندما لمحني بشكلي الانيس قال بهدوء :

— أخرج .. أخرج .

فغمزته ثانية وغادرت الحانوت . وانتظرته قرب الباب لحظة ، خرج بعدها يتمطى وتبعني . وبعد أن أشعل لفافة ، التفت إلي منتظراً كلامي . فسألته :

— هل انت تيخون ؟

— .. نعم .

— اذن أوقف بيوتورس .

فقطب ما بين حاجبيه وقال :

– عم تتحدث ؟.. أي بيوتورس هذا ؟..

– شخص طويل جداً ، كأنه القسيس .

– حسناً ! .. وبعد ؟

– هذا كل ما هنالك .

– وما دخل بيوتورس القسيس ، وكل باقي انشودتك بالنسبة لي ؟ . .

فعلمت من نظرته وتساؤله انه ليس بالهين ،فهرعت الى البيت فخوراً في نقل ما طلب مني بلتيموف. وهذه الحادثة هي اول مرة اشترك فيها في اعمال التآمر .

كان صديقي مشتركاً فيها ، وعندما كنت اطلب منه ان يفيدني عن مبادئها يقول :

– لا زلت يافعاً صغير السن يا اخيّ ، وما عليك الآن الا ان تنكبّ على كتبك .

وقد طلبت من صديقي ايفرينوف ان يعرّفني على شخصية هامة وطالبته بهذا مرات إلى ان اخذني الى لارسكولية بولية وهو في حقل واسع خارج حدود المدينة، قائلًا بأن التعارف يجب ان يكون محاطاً بهالة من السر ، ثم اشار باصبعه الى مكان ناء ، وسرنا قاصدينه ، عبر الحقول المهجورة . ثم همس قائلًا :

– هاهوذا ، إتبعه ، وعندما يقف اقترب منه وقل : اني من خارج المدينة .

- ١٠ -

المركب المحطم

مع ان الاشياء الغامضة تبدو جذابة عادة ، فانهـــا مع ذلك بدت لي سخيفة الى ابعد حدود . كهذا الذي يتأرجح عن شمال ويمين ، كأنه حزمة من أعشاب يابسة في حقل معشوشب .

وجدت نفسي أمام شبح صغير الهامة نحيفها ، غـارق العينين مستديرها ، يرتدي ثوباً موحداً لطلاب العام الاول في الجامعة ، تلحظ الانقباض بادياً على شكله ، وعلى قبعته بقعة غبراء كانت منذ أعوام إشارة الجامعة .

وجلسنا بين القبور تحت ظلال شجرة ملتفة خضراء ، وتجاذبنا اطراف الاحاديث التافهة التي تدعو الملل والاعياء . ثم سألني فيما اذا كنت ارغب بالانتساب الى جمعية اسسها هو ، بعد ان علم مني مدى حبي وتطلعي الى الدراسة . ثم افترقنا بعد الاتفاق ، وراح كل واحد منا الى وجهته .

اما هذه الجماعة التي تحدث عنها فلم تكن سوى خمسـة اعضاء ، وكنت اصغرهم سناً ، واقلهم في ملاذ الدراسـة علماً ، وخـاصة عندما يتباحثون عن ستوارت ميل ، أو تعليقات تشيرني تشيفسكي . اما اجتماعاتنا فكانت في بيت ميلوفيسكي الطالب في الصف الثـاني للجامعة ثم اصبح كاتب قصص قصيرة يوقعها بالاسم «بيليوفسكي» المستعار ، وقد انتحر بعد ان أكمل مؤلفاته الخمسة ونشرها . « وكم

من الاحرار قد غادروا الحياة بملء ارادتهم ! »

كان ميلوفيسكي هادئاً وخجولاً في تفكيره وحذراً ذلقاً في حديثه ، يعيش في كهف حقير ، ويعمل في حانوت نجار ، ورفقته غير مسلية .

لم أستطع فهم كتاب ميل ولا نظريانه ، ولكن بعد مدة وجيزة بدت سهلة للغاية حتى اجربها بنفسي وعلى نفسي ،وادركت ان المرء لا يحتاج الى كتاب ضخم صعب الفهم عويصه ، انما يحتاج الى كتاب بسيط مفهوم لدى كل قارىء .

وانه لمن الشاق تماماً علي ان اجلس جلسة صاحبي في ذلك المكان المنخفض الذي يعمل فيه اكثر ساعات يومه ، متنفساً رائحة غراء النجار ، ومراقباً الحشرات وهي تزحف على الخشب المتآكل لتنخره . ومع كل هذا فاني قبلت العمل معه .

وفي صباح احد الايام لم يحضر معلمنا في وقته المعين ، فظننا انه لن يأتي يومها ، فاحتفلنا بساعة راحة أكلنا فيها خبزاً وخياراً وشربنا زجاجة من الفودكا ، وفيما نحن في مرحنا اذ بأقدام صاحب المعمل تبين من شق النافذة . وبسرعة اخفينا الزجاجة تحت الطاولة وجلسنا جامدين مشدوهين خشية أن يقلب احدنا الزجاجة بقدمه ، واخيراً قلبها معلمنا ! وعندما سمع صوتها احمر وجهه غضباً ولم ينبس ببنت شفة ، وكم كنا نودّ ان يجابهنا بالسباب والشتم .

وقد اقلقني وحزّ في نفسي سكوته ، بوجهه القاتم وجرحه المندمل المرتجف على جبينه . وتطلعتُ الى وجوه رفاقي المحمرة خجلًا ، فقد كانوا يشعرون شعور المجرم الاثيم نحو رئيسهم . وفي

الحق ، فقد كنت آسفاً مع اني لم أكن من مريدي الفودكا .

وكم كنت اتجول بعد الانصراف في شوارع التتـــار حيث الناس بسطاء ويعيشون حياتهم برغبة وحب ، وكانت لهجتهـــم مضحكة إلى أبعد حد . وعندما يهبط الليل كنت تسمع نـداء المؤذنين على المآذن العالية ، داعية إياهم الى الصلاة جماعة . وتخالف هذه الحياة ـ تمام الاختلاف ـ الحياة التي أحيـاها والتي عجزت عن اسعادي .

كنت اروح لأجد في ضوضاء نهر الفولغـــا تلك الموسيقى المتصاعدة بخشونة من النوتيين الذين يشقون المياه بمجـــاذيفهم او يحملون الاحمال الى السفن . وسأبقى متذكراً دائماً قصـائدهم التي يتغنون بها اثناء العمل .

هناك مركب يحمل بضائع فارسية قذف عـــلى صخر قرب قازان ، فاصابه العطب ، فاستعدت سفينة لاعـانة اصحابه ونقل محموله . كان ذلك في شهر ايلول . الرياح عاتية تشاركهـــا الامطار والبرد في صليلها ، والامواج تثور وتعج بوجه الرياح . فاتجهنا صوب المركب المنكوب في مثل هـــذه الظروف الجوية السيئة .

هبط الظلام مصحوباً بسماء ثقيلة الغيوم ، وقد ظللت هـــاء النهر بأجمعه ، وكان النوتيون يلعنون المطر والرياح . . وهـــذه الحياة ايضاً . وقد رأيتهم يهرعون الى اماكن امينة عـلى السفينة يتحصنون بها من غلواء الطبيعة حتى يصـلوا الى الشاطىء الضحـل لينقذوا المركب المحمل . وقد شاركتهم انسانيتهم ، ورحـلت

معهم محدّثاً نفسي عنهم انه ليس بمقدورهم الثبات على العمل ، ذلك لانهم – على ما ظننت – يرهبون العمل ، ويحبون النوم .

قبطانهم رجل مسن ، وجهه مليء بآثار الجدري ولا يفتـــأ لسانه يتحرك بكلمات وقحة كشكله المرعب ، وله عينان كعيني خنفساء ، وأنف كأنفها .

وبعد أن وصلوا الى السفينة الغريق صـــاح الربان بصوت عال انثوي :

– الصلاة يا أولاد .

فهرعوا يتجمعون كأنهم كتلة واحدة في ظلام دامس مدلهم واخذوا في الصلاة . وحالما انتهى الربان من صلاته هتف :

– المصابيح ... وأروني صبركم على العمل ، والله وليّكم .

فقذفوا بانفسهم الى السفينة المغرقة ، ووصلوا الى داخلها وهم مبلّلون بالمطر . وقد اظهروا قوة خارقة جَلِدة كأنهم في معركة رابحة مستميتة . ولم تمض لحظات حتى شرعت اكيـاس الارز والزبيب تتطاير في الهواء لتصل الى سفينتنا . وكانوا يستثيرون همم بعضهم البعض ... بكلام او سباب او مزاح .

كان من الصعب عليّ فهم بعض الاشخاص الذين كانوا يتأوهون برداً ويشكون الحياة وقد انقلبوا كأنهم ليوث الشرى لا يقف امامهم حائل .

أخذ البرد يشتد والمطر يزداد ، والريح تولول بقوة ، فتطيح باثوابنا عن اجسادنا ، ورغم ذلك كله ترى الاشباح تسير بسرعة من هنا الى هناك ، متنقلة من سفينة الى اخرى ، والكل يعملون من دون

ملل ، بل كأنهم يمرحون ، واخذوا يحملون الاكياس ويتناقلونها بالايدي ، او يركضون وراء الطرود ، وتحسبهم يلعبون لعب الاطفال المتحمسين ، او يرون لذة العمل اجمل من لذة هصرهم المرأة بين اذرعهم .

ومن بينهم رجل ضخم ذو لحية كثة ، يلبس جلباباً قصيراً مبللاً بالماء – ربما كان صاحب المركب او وكيله – يصرخ بأعلى صوته :

– ايها الزملاء .. انجزوا العمل ولكم المكافأة .

وكان يساومهم ويساومونه ، فيقبل بما يطلبون :

– لكم ما شئتم ، شريطة اسراعكم بالعمل .

فيهبون على العمل بأيد فولاذية ونشاط وغبطة . وانا نفسي كنت اعاونهم بالعمل ، اجرّ الاكياس تاركاً واحداً ساحباً الآخر . وقد بدا لي ولزملائي كأننا نرقص رقصة جنونية وحشية ، وكنت متعجباً من نشاطهم ، موقناً من انهم لو وضعوا اياديهم على ابراج الكنائس او مآذن المساجد لهزوها هزاً ، او طلب اليهم ان يزيحوا مدينة باسرها لأزاحوها الى حيث يرغبون .

كنت احلم بحلاوة هذه الليلة الهائجة الاليفة والتي لم اتذوق مثيلها حتى الآن ، وقد استعرت في فؤادي الرغبة في اقتناص لذة العمل – وكانت الامواج تحتنا تتراقص في سيرها ، والمطر من فوقنا في تهطال مستمر على ظهر السفينة ، والريح تئن بيننا وبين الموج من كل جانب .

بان العمال من طيات الشفق الاحمر الرمادي باكراً يواصلون

جدهم وتسابقهم ، صارخين ضاحكين ، وكأنهم ينشدون مجـــد القوة والعمل . وبعد ان امتد اللون اللامع اللازوردي شاطراً وجه الصباح ، انشقت الغيوم ، وانفرجت السماء عن شمس وهاجة انارت الدنيا بنورها الألاّق فرحّب بها الرجال هاتفين ،وشعرهم قد تهدل على ذقونهم فتشكلت حول وجوههم هالات من الندى الماطر ..

هذه القوة الطامحة ،وهذا البأس المستجد في كل آونة ،بامكانها ان يصنعا المعجزات على الارض ، وبامكانها بناء مـدن وقصور سحرية كأنها من فعل المردة والشياطين . ولم تمض برهـة اخرى حتى ازداد شعاع الشمس تبسّماً حانّاً اياهم على العمل ، ثم عاد الغيم الى الانطباق بعد ساعة ، فيسأم احدهم هذا الموقف ويصرخ:

ـ اطلبوا ايقاف العمل ايها الرجال .. لقد تعبنا .

فيجيبه احدهم بعنف :

ـ من يقول بايقاف العمل ؟

وظل الرجال يعملون دون هوادة ، تحت وابل المطر ، وفي ثنايا الريح القارسة الى الساعة الثانية بعد الظهر الى ان تم انقـــاذ آخر جولق من السفينة . وقد طبعوا في قلبي حباً لهم ولقوتهم ، وتطوعاً لمشاركتهم في هذا العمل الانساني .

ولما انتهى الجميع غطوا في نوم عميق بثيابهم المبللة على ظهر سفينتهم ، وهي تتابع طريقها ـ وانا معهم ـ الى قازان ، ولمـا وصلناها رسونا على الضفة الرملية واتجهنا شطر الحانة كي نشرب شيئاً من الفودكا . وصادفت هناك صاحبي اللص بوشكين فقال لي:

– ما الذي فعله بك الزمان ؟ .. ماذا صنعوا بك ؟ ..

واخبرته باندفاعي نحو العمل ، فاصغى متنهداً واجاب :

– يا لك من ابله . بل وأكثر من ابله .. يا غبي ..

ثم تركني وانساق بين صفوف الجالسين يصفر لحناً ، فشاركه مغنّ باللحن ، الى ان بدأ يغني لنفسه اغنية داعرة :

« حدث ذلك في منتصف ليلة ليلاء

كانت سيدة تتمشى في حديقتها »

ويردد غناءه البحارة ، ضاربين بأكفهم على المنصات هائجين :

« الحارس ... قد سرى خلال الليل

وشاهدنا منظراً عجباً ... »

فاستجابت لقوله صرخات داوية ، مع صفير حاد ، تجيبه بكلمات تساوي الشعر وقاحة وتساويه تجاسراً مقذعاً .

– ١١ –

الندوة السرية

لقد تعرفت بأندريه دورينكوف صاحب حانوت سمنة صغير كائن في طرف شارع ضيق عتيق . كان هذا صغير الحجم ، ذا وجه مجعد محاط باطار من لحية شقراء ، وله عينان تنمّان عن بعض النباهة ، ويمتلك اثمن مكتبة في قازان كلها ، تحتوي على كتب ممنوعة وكتب نادرة ، مجموعة يقرؤها طلاب المدينة من مختلف

مدارسهم، ويطالعها كل شخص يميل الى الثورة الاجتماعية الحديثة.

محله الى جانب بيت حقير لأحد السكوبيتس وهم ينتسبون الى جماعة دينية، يساعدون الناس بمالهم لقاء فائدة باهظة. وبداخل الحانوت باب قصير يقود الى غرفة كبيرة تكاد تضاء بنافذة واحدة تطل على الباحة، وتؤدي هـذه الغرفة الى مطبخ حقير، والى جانب هذا المطبخ في زاوية مظلمة توجد خزانة صغيرة يضع فيها الكتب..

بعض هذه الكتب منسوخة باليد، وهي عبارة عن مذكرات كثيفة مثل الرسائل التاريخية « للافروف » وماذا يجب عمله « لشيرني » وعدة مقالات بقلم « بيزاريف » وكل هـذه النسخ الخطية يقرأونها بشغف زائد.

وعندما وصلت الى الحانوت كان دورينكوف منهمكاً بالبيع مع بعض الزبائن، فأومأ لي بأن ادخل الباب القصير. وعندما دخلت الغرفة الواسعة المظلمة، شاهدت رجلاً مسناً جاثياً على ركبتيه في الزاوية أمام إحدى الصور يصلي لها ويتضرع اليها بحرارة. ذكّرني ذلك الموقف بلوحة لـ « سيرافين » ناسك ساروف، وعندما وقفت انظر اليه اعتراني شعور بالتناقض الصعب لم افهمه.. وان كنت اريد ان افهمه.

لقد وُصف لي دورينكوف نارودينكي بانه رجل « ثورة »..

وعلى رجل الثورة الا يؤمن بخالقه، ولكن بدا لي انه ورع ومحب لدينه. وعندما انتهى الرجل من صلاته مسح على شعره وذقنه ثم تطلّع اليّ بقساوة وقال:

– اني والد اندريه .. ومن انت ؟ .. ها ، أظنك طالباً متخفياً ؟ ..

– وما السبب الذي يجعل الطالب يتخفى ؟

– هـــذا ما يحدث الآن . وعلى كل مهما تخفيت فان الله يعرفك ابداً .

ثم دخل الى المطبخ ، فجلست بجانب النافذة ، وانهمكت بالتفكير . وفجأة سمعت صوتاً يقول :

– لماذا انت خائف ! .. هل شكلي مرعب الى هـــذا الحد ايها الغريب ؟..

كان صوتها رفيعاً ، وفيه بعض الرجفة . ثم تقدمت مني ببطء وحذر تتكيء على الحائط كأن الارض تميد من تحت قدميها ، او كأنها تسير على حبل بهلواني يتأرجح فوق هوة سحيقة . تعثرها هذا واستمساكها بالتأني زاداها شبهاً بالملائكة .

ان جسمها يترنح ويرتجف كأن ابر النحل قد وخزت كعبيها ، فوقفت امامهـــا مشدوهاً مستغرباً ما ارى ، مشفقاً عليها .. « يا للعجب ! كل شيء في هذه الفتاة غريب » .

فجلست الفتاة على كرسي الى جانبها بحذر ، وكأنها تخشى ان يطير من تحتها او تبتلعه الارض ، واخبرتني ببساطة وانشراح لم الاحظها على فتاة غيرها قط ، انها كانت مقعدة ، ولم تأخذ بحركتها هذه الا منذ الايام الاربعة او الخمسة الاخيرة بعد ان فقدت حركة أطرافها السفلية ، وظلت طريحة الفراش ما يقرب من ثلاثة اشهر او يزيد . ثم قالت مبتسمة :

ـ الحقيقة انه نوع من الامراض العصبية .

كم كنت أود ان تشرح لي سوء حالتها بشكل كامل . فان المرض العصبي هو شيء غير عادي بالنسبة لفتاة مثلها في ربيع العمر وفي غرفة غريبة هادئة كهـذه ايضاً ، غرفة تنم عن فقر مدقع ، وعن يأس من الحياة ، وذلك النبراس المشتعل امام الايقونة الحلوة قد اظلّ بسلاسله النحاسية الصفراء ملاءة المنضدة الواسعة . ثم واصلت الفتاة حديثها بصوتها الناعم الأنيق الجذاب :

ـ لقد سمعت عنك كثيراً .. واردت ان اراك امامي لأشبع من رؤيتك .

فشعرت بشيء من الاضطراب في نظرات هذه الفتاة اللامعة من خلف ستار عينيها الحالك ، واحسست ان في نفسها امراً يصعب تفسيره ، حتى لكأنها تقرأ ما في صميم ذاتي من خبايا وخفايا . فلم استطع ان اجيبها على كلامها ولا بحرف واحد . ووقفت صامداً في وسط الغرفة محملقاً في ارجائها احاول تزجية الوقت بالنظر الى بعض صور العظماء المعلقة على الجدران كرسوم هرزان وداروين وغاريبالدي . ثم تقدم منا شاب في مثل سني ، له نظرة ساخرة ، وقال للفتاة :

ـ ماذا تعملين هنا يا ماريا ؟

فأخبرتني الفتاة بأن هذا هو أليكسي اصغر اخوتها . واضافت قائلة بأنهـــا ، لولا مرضها لما توقفت عن دراسة التوليد .. ثم سألتني قائلة :

ـ لماذا لا تتكلم يا صاحبي شيئاً ... ! أخجول انت ؟ ..

فدخل اندريه مبتسماً واقترب من اخته مارا بيده على شعرها مداعباً اياها بكثير من العطف والحنان . واخذ يسألني عن نوع العمل الذي كنت ابحث عنه . وبعد لحظة ظهرت بالبـــاب فتاة ممشوقة القد يرنح الصبا عطفيها ،ذات شعر أحمر مقصوص ، وعينين خضراوين . نظرت الينا بامعان زائد ولمدة ليست قليلة، وتقدمت من (ماريا) واقتادتها الى خارج الغرفة قائلة لها بصوت خفيف :

– يكفي هذا ماريا .

وبعد ذهابها تركت المكان مضطرباً اضطراباً لم اعهـــده في نفسي من قبل .

ولم يمض يومان على ذلك الحادث حتى الفيتُ نفسي منساقاً الى نفس المكان لاشتياقي الى الحياة التي يحياها هؤلاء الناس في ذلك المكان . كل شيء في هذه الدار غريب حتى الرجل الوقور ستيبان ايفانوفيج القريب من القلب ، ذو الشعر الابيض الشاحب كأنـه زجاج شفاف ، يجلس في زاوية الغرفـــة ويبتسم لي برفق ورقة محركاً شفتيه الداكنتين .

تراه وكأنه في خوف دائم من ان يصاب العالم بمصيبة أليمة .. يبدو هذا على وجهه تمامـاً ، وحين دخلت الغرفة كان اندريه يتجول في الغرفة وعلى فمه ابتسامة بريئة،اما اخوه اليكسي فشاب كسول حديدي الساعدين قوي الكتفين اما الثالث إيفان فطالب في دار المعلمين لا يأتي الى دار اهله الا ايام الآحادوالعطل لأنه طالب داخلي يعيش في مدرسته . هذا الأخ – ايفان – انيق الثياب ، مسرح الشعر الى الخلف ،ملء برديه روح الشبيبةالناهضة.

اما ماريا فانها تقطن غرفة على السطح وقلما تنزل منها . واحياناً تقدم الينا فأشعر لساعتها بشيء من القلق الملح حتى لكأني مصفد بأربطة وهمية تشل من حركتي .

كان ينظم امور البيت ، ويدير شئون العائلة امرأة طويلة نحيلة ، ذات وجه كوجه الدمى الخشبية ، ولها عينان جامدتان كأنهما عينا راهبة يائسة من حياتها ، وتعيش في الدار المجاورة عند اسيادها السكو بيتس وتساعدهم في الطهي والتنظيف وتشاركها في العمل ابنتها ذات الشعر الكعكي الاحمر ، والمقصوص الى الخلف كشعر العذارى الناضجات نضوج الكمثرى .

وعندما تلحظ ناسيتا — تلك الصبية الناضجة — خيال شاب تلمع عيناها الخضراوان وتبرقان في توهج ورغبة .

اما اسياد هذا البيت الحقيقيون فهم طلاب من الجامعة ، من الاكاديمية اللاهوتية ، من معهد البيطرة .. مجموعة من الشباب المتطلع الصاخب ، مملوؤون بالشعور الطيب نحو شعبهم الروسي ، وكلهم قلقون على مستقبل وطنهم . وتدفعهم الى الثورة الصحف اليومية المتحررة او الكتب الحديثة او حوادث الجامعة .

وكانوا يهرعون الى حانوت دورينكوف كل مساء من كل أرجاء مدينة قازان ، ويخوضون في مجادلات عنيفة لصالح الوطن ، او يتهامسون بهدوء داخل الغرفة ومعهم كتب ضخمة تهدف الى اعتناق الحقيقة الثائرة .

لم أفهم من هذه المناقشات الا القليل لأن سرعتهم الزائدة في

سرد الكلام كانت تُضيع عليّ فحوى المناقشة ، كما تغيب ذرات الدهن في حساء الفقير . وكان بعضهم يبدو كهيئات رجال الدين ذوي اللحى الرمادية الذين يمثلون الطوائف الدينية المتعددة على طول نهر الفولغا . وقد تحققت بانهم يهدفون لتحسين الحيـــاة ومخلصون في مطلبهم . ولكني كنت افقد حلاوة الحديث في وابل كلامهم الفيـــاض – ومن الواضح لي ان كل الامور التي يحاولون حلّها غائرة في اعماق ذاتي ورغبتي جامحة لمشاركتهم في حلها .

وكنت انظر اليهم نظرة الاسير الى صاحب قيده ، ومن دون ان اشاركهم في الكلام كان صدى تفكيري يعاضدهم في ذلك . اما نظرتهم لي فانها كنظرة النجار الفنان الذي يرى قطعة من الخشب وهو يشعر ان بامكانه ان يجعل منها شيئاً مرغوباً باهراً ، وحين يقدمني احدهم الى غريب يقول :

– اقدم لك عبقرية « فطرية » !

كان يقول كلمة « فطرية » بنفس الفخر الذي يحسه جامع محب لقطعة من النقود لا يريد ان يدعها تسير الى يد البائع . لم احب هذا اللقب كما اني كنت اثور من الاتجاه الذي يوجهني له هؤلاء الشباب .

كنت مرة ماراً يوماً من امام احدى المكتبات فلفت نظري كتاب « حقائق وأمثال » ومع انني لم افهم مغزى هاتين الكلمتين فقد اعتراني شوق طاغ لقراءته ، فطلبت من احد طلاب الاكاديمية اللاهوتية ان يعيرني اياه ، ولكن كان جواب اسقف المستقبل

وهو شاب ذو رأس كرأس العبيد ، وشعر مشعث مجعد ، شفتاه غليظتان . . واسنانه ناصعة البياض :

ـ ان هذا لسخافة يا أخي !. . يجب ان تقرأ ما تستطيع فهمه فقط ، ولاتحشر في دماغك ما هو أعلى من ثقافتك .

فلدغتني صراحته معي في الصميم ، وتركته لأشتري الكتاب من مالي الخاص . واني ما زلت محتفظاً به إذ انه اصدق كتاب قرأته في حياتي . وبعد قراءتي ابجدية العلوم الاجتماعية ، شعرت ان المؤلف يعطي قبائل الرعاة أهمية فائقة ، ويدع الصيادين الرحل المغامرين في بحر الظلام المجهول . وعندما عبرّت عن شعوري لطالب في لولوجيا ظل ساعة يعظني عن كيفية نقد النظريات والكتب ، وقد قال :

ـ كي يكون للمرء نقد نزيه يجب ان يؤمن بالحقيقة الواقعة ، فما هي الحقيقة التي تؤمن بها انت ؟

كان هذا الطالب مغرماً بمطالعاته النهمة . حتى انه ليقرأ في الشارع . وغالباً ما اصادفه وهو دافن وجهه بين دفتي كتاب يكاد يصطدم بالمارين . وعندما اصيب بمرض التيفوس بدأ يهمهم فاقد الوعي :

ـ الاخلاق ، يجب أن تهذب وتنسق ، يجب ان يُعتمد على عناصر الحرية والارغام .

كان هذا الشاب ذا قلب طيب ، ضعيف البنية بسبب من قلة التغذية وقد حاول المستحيل ليستفسر عن صاحب اخلص من الكتاب فلم يجد . كانت عيناه السوداوان تشعان ببريق ابتسامة

طفل سعيد ، ثم افترقنا .

وبعد بضع سنوات على تعارفنا الاول في قازان ، قابلته كرة ثانية في كاركوف حيث كان يواصل دراسته الجامعية بعد مرور خمس سنوات قضاها نفياً في كيم ، وفي تلك الايام اصيب بسل سمح جعله يبصق دماً ، وقد حاول ان يوفق ما بين نيتشه وماركس فكان يمسك يدي بين كفيه الهزيلتين ويقول :

ـ لا حياة من دون عمل مفيد يا صاحبي .

واخيراً توفاه الله في سيارة أجرة فيما هو ذاهب الى الجامعة . .

لقد قابلت اكثر من شهيد كهذا ، من خدام قضية العقل . وإني لمحتفظ بذكراهم المقدسة . . منهم مجموعة من البشر كانوا يجتمعون في بيت دورينكوف معنا . حتى إني وجدت معنا في هذه الاجتماعات ـ غير الشاب الياباني المسمى بانتيلمون ساتو ، الطالب في الاكاديمية اللاهوتية ـ شخصاً عريض المنكبين ، ذا رأس حليق كرأس التتار ، ولحية كثة مرسلة على جانبي فكه . يرتدي ثياباً ضيقة ، ويلتف رداؤه الرمادي على جسمه فيكاد لا يستطيع فيه حركة ، ويرفع ياقته الى ما فوق ذقنه فيختفي نصف وجهه . كان من عادته أن يجلس متطرفاً ، يدخن غليونه القصير ، ممعناً النظر في الموجودين امامه . وكانت نظراته المحدقة هذه ، فيها كثير من معاني الانتباه . وكم من مرة لاحظت عليه ، وقد ركز ناظريه نحوي ، أنه يزيدني بمقياس تفكيره العميق . فأخشاه واخشى نظرته . وأشد ما يذهلني منه سكوته الطويل وانقطاعه عن الكلام ، مع ان الجميع في حديث زائد وعالٍ ايضاً ، ولكني

فهمت من بعض كلمات صائبة تفوه بها ما يحتوي انطـــواؤه من أفكار خبيئة يخفيها ستار من السكوت .

كان الرواد يسمونه خوخول . ولا احد – على ما اعتقد – يعرف اسمه الحقيقي غيراندريه . وعلمت بعد مدة انه قضى عشرة أعوام نفياً في باكوتسك ، وهذا ما زاد من اهتمامي به ، ولكن لم تكن هذه المعرفة لتشجعني إلى التزلف اليه . ولم اكن يوماً من المصابين بداء الخجل والجبن ، انما شغفي وحب تطلعي جـرفاني لمعرفة كل امر ، مما جعلني مدى حياتي أدرس كل مجهول بعمق ، ودائماً تراني منصتاً الى الناس ولكن بتأن وهوادة .

وعندما كانوا يتحدثون عن الشعب ، كنت أصغي متعجباً من صراحتهم ، غير واثق من قوتي في المجادلة رغم ان تعليقاتي الخاصة عليها كانت – كما أظن – جديرة بالتقدير ، مـع انها تنحرف كل الانحراف عن تيار مناقشتهم . إذ انهم يجعـلون الشعب صاحب حكمة ورأفة ، ويملك الجمال الروحي حتى لقد قاربوا الى ان يؤلهوه . وقد هدفوا الى ان الشعب يملك العلو والعدل والعظمة . ولكني – وإن كنت أعيش بين الشعب – لم اشعر شعورهم قط . إذ ان من جيراني النوتي او البناء ، باكوف ، او زيب ، اوغريغوري ، وكلهم مختلطون في الحياة . أما هم فيقولون ان الشعب وحدة لا تتجزأ لقد . حطوا مـن قدرهم لأجله ، واعتبروا أنفسهم خاضعين لارادته وسيطرته . وأنا اقول لنفسي بـــأن هؤلاء المتحدثين هم اصحاب العقل والعظمة والعدل ، لأن في افئدتهم شعلة تضطرم ، وإرادة قوية حارة تتأجج ، وغيرة لبناء حياة حرة ، تعتلج أسسها

على حب الانسانية الصارخ .

لم ألاحظ قط بين هذه المخلوقات البسيطة التي عشت معها وبين ظهرانيها هذا الحب الذي يصفه اولئك الوطنيون وذوو المباديء السامية التي تقرع في كل آن وتسطع مع أي لمحة . كان حديثهم يتساقط على قلبي برداً وسلاماً ، ولقد ساعدني كثيراً ، بل واعاد علي تلك القراءات الساذجة عن حياة الريف المظلمة ، وعلى الاخص صمود الفلاح بين دياجير القحط والفساد . فابتدأت اشعر ان المرء لا يستطيع ان يفهم معنى الحياة الحقيقي إلا اذا كان في قلبه حب قوي متأصل للانسانية السمحة ، ومن تلك الآونة شرعت انتبه نحو الآخرين اكثر من انتباهي لنفسي .

- ١٢ -

عنده حبيبة

شرح لي أندريه بأنه صرف دخل حانوته الضئيل بأكمله لمساعدة المؤمنين بالايمان الجديد : « سعادة الشعب فوق الجميع » . وحين يقف معنا في الغرفة يبدو كأنه عامل بسيط في كنيسة بسيطة . وهو يصغي الى محادثات أعاظم رجال الدين ، ولم يكن ليخفي اعجابه من حكمة الكتاب الذين يكتبون في هـــذا العصر . وكان في وجهه شعلة ابتسامة دائمة حين يصادفني ، فيسألني وهو يداعب لحيته :

ـ أليس هذا عظيماً ، أليس هذا عظيماً ؟..

وعنـــد ما يعترض لافروف البيطار ، المميز عن الآخرين بصوته الاجش كنقنقة الاوز البري ، المناقشة ضـد النارودنيك يخفض أندريه حاجبيه ويهمس خاشياً :

ـ يا له من مزعج .

كان اتجاه أندريه نحو النارودنيك مطابقاً لتفكيري ، والامر الذي حز في نفسي هو هذه المعاملة الصعبة التي يعامله بها الطلاب؛ كزجر الاريستقراطيين لخادمهم . ولكنه لم يلاحظ ذلك أو لم يهتم له . وعندما يغادر الرواد الغرفة كان يدعوني للبقاء معه هذه الليلة ، حيث يضع « لبّاداً » على الارض لنضطجع عليه كلانا ، ويهمس بأذني وسط ظلام الغرفة الشاحب بالضوء الباهت المنبعث من قنديل الايقونة، ويسر اليّ بكلمات هو مؤمن بها كل الايمان :

ـ سينقلب مع الزمان لطرفنا مئات الشباب الطيبين بل الألوف . وسيملؤون كل المراكز الرئيسية في جميع انحاء روسيا. وبعد ذلك سيحولون حياتنا بسرعة قصوى .

كان يكبرني بعشر سنوات ، ومعجباً تماماً بناسيتا ذات الشعر الأحمر ، ويحاول دائماً ان يباعد بصرها عـن بصره لشوقه الزائـد وخجله العارم ، وأمام مرأى الآخرين يظهر بمظهر المستخـــدم الآمر . وبعد مغادرتهم المكان يعتذر لها مبدياً أسفه ويحدثهـــا وابتسامة الخجـــل على محياه ، وأنامله الراجفـــة تتلاعب بين شعيرات ذقنه .

وتراقبه اخته الصغرى بعينين واسعتين منفرجتـين ، تنمّان

عن وجهها البريء براءة الاطفال السذج وهي تحدق بهيئة مضحكة مصغية الاصغاء كله، وتسمع منهما أعذب الكلام وهي مختفية في ركن ما من الغرفة ، ولما يعلو الكلام بينهما تهرب بسرعة ، وهي تتنفس بصوت مسموع راجف ، كأن احداً قد داعبها بماء مثلج .

ومن بين الزوار طالب طب يحاكي شعره لون الرمـــال . مغرم بعبور الغرفة بين جيئة وذهوب، يحاول التقرب من الاخت الصغيرة . وحين يكلمها يخفض صوته بصوت هـــامس ، مقطباً حاجبيه — كعادته — . كل هذه المداعبات ، كنت ارى فيهـــا مثار متعة لي ولهم .

جاء الخريف واستحالت الحياة شاقة من دون وظيفة، وخاصة لهذا الانجراف نحو صحبي الجدد فقـلّ مرتبي ، وانخفض مكسبي حتى اني كنت ألجأ لتحصيل خبزي اليومي الى الآخرين . وحدّث عن صعوبة ابتلاع زاد الناس . فأخذت ابحث عن عمـل في هـذا الشتاء الى أن حططت رحالي اخيراً في مخبز « فاسيلي سيمينوف » .

(وقد تحدثت عن هذه الفترة من حياتي في «السيد» كونوفالوف ، ستة وعشرون رجلاً وامرأة ، ويالها من فترة يائسة . وكم زادتني من المعارف) .

عندما هبطت المخبز ببنيتي الضعيفة ومعنويتي الناقصة ، نما بيني وبين زملائي في الصنعة صداقة قوية جعلت من ثباتها حـائطاً من النسيان . . نسيان الماضي ونسيان اصحاب اندريه . لم يأت احد منهم لمشاهدتي في المخبز ، كما أني لم أستطع زيارتهم لعملي ايام الاسبوع ما يزيد عن وقتي مع رفاقي في المخبز .

منهم من نظر الي كأني تسليته الوحيدة ، وآخرون يكنون لي ما يكنه الأطفال لمن يقص عليهم القصص الظريفة الشيقة . لا أعرف بأية وجهة من الحديث سأبادرهم ، حتى افهمهم عن الامل في حياة غير هذه ، وانها يمكنه الحصول ؛ حياة اقل قساوة ، فيها مأرب وغاية . فأنجح احياناً في نشر اهدافي ومبتغاي ، وأشاهد بريق الحزن على أنفسهم والغضب من هذه الحياة ، وافرح معتزاً بتفكيري على أني قادر على العمل بين الشعب لانارة خطواته .

وكثيراً ما يصدف أن أجد نفسي — وهذا طبيعي — عاجزاً عن فهم أقل المسائل تبصراً ، وأعجز عن أسهل الأمور صامتاً ، فاشعر بالهوة التي رميت فيها ، كديدان عمياء تعمـــل دون ان تفقه . ويجدون السيطرة الوحيدة على النسيان بالشراب ، فيكرعون من دنّ الخمرة ما استطاعوا مضياً ، أو بمشاركة المومسات لياليهن الصاخبة . لكل واحد منهم زيارة واحدة إليهن في الشهر ؛ في اول يوم يستلمون فيـــه الراتب . ويحلمون قبل اليوم المنشود أسبوعاً كاملاً به ، ويطيرون الأحلام لما سوف يصادفون .

ويشرع في اليوم الثاني كل اثنين منهم ، بشرح اللذات التي صادفاها في يومهما الماضي كما كانوا يفاخرون بقواهم الجنسية الشابة ، ويهزأون من ضعف قوى المومسات .. ومع ذلك فإنهم يبصقون باحتقار كلما ذكرت إحداهن .

ومن المخجل حقـاً الى حد الغرابة ، ان يشتري رجل امرأة من إحدى المراخير المنثورة في الشوارع ، لليلة واحده لقاء روبل واحد . كنت أرقبهم باحتقار دون ان أشاركهم هـذا الأمر

المشين ، حتى إني لم أداعب فتاة – او لم أجرب بعد – حتى الآن ، فيغضبون مني بخبث مازح . ولم يعودوا ليطلبوا مني ان اذهب معهم الى دور العهر اذ قالوا :

– من الأوفق لك ألا تشاركنا هذه الروحات .

– لماذا ؟

– لأن .. هذا يكفي ، يجب ان لا تكون معنا .

فتمسكت بهذه الكلمات شاعراً أنهم يخبئون في أنفسهم شعوراً خاصاً نحوي .. ولكني لم أستطع فهم فحوى كلامهم . ثم قال احـــدهم :

– يا لك من شخص لا يفهم ..! أقول لك ، انه من الحقارة ان تشاركنا الذهاب الى هناك .

ويتكلم ايضاً واحـــد من الجمع اسمه آرتم وابتسامته المرّة تعلو شفتيه :

– لكأنك قسيس تحمينا .. او اعتقد ان « أبانا » بقضه وقضيضه هو الذي يرافقنا .

شعرت المومسات بفكاهة تمنّعي ، وارجعن ذلك الى خجلي ، ولكنهن ايقنّ باني احتقرهن تمام الاحتقار . فسألتني احداهن غاضبة :

– وهل تظن انك اشرف منا ؟

لكن « تيريز بورونا » ، تلك التي تملك هذه المواخير ، ترقبني بعينيها الماهرتين لكأنهما عينا كلب ، وتقول لهن :

– لا تجرحنه يا فتيات فلربما عنده خطيبة .. أليس كذلك

يا شاب . . ؟ إن شاباً بهذا الظرف ، وهذه القوة لمن السهل عليه ان يحظى بحبيبة .

عندما تثمل تيريز تصبح قبيحة الشكل ، اما حين تصحو من سكرها فان نظراتها الثاقبة تذهلني ببحثها عن منطق الحيـــاة . وبعد ان تسكت قليلاً تعود الى كلامها :

ـ إن اصعب الاشخاص الذين يستحيل على المرء فهمهم هم طلاب الاكاديمية ، فما عساهم يفعلون بفتاة ان حصلوا عليهـــا ؟ أيزلقونها على بلاط الحمام المدهون برغوة الصابون الى بعيد ، وهي عارية ليروا مدى انزلاقها بعريها ؟ ام ماذا ؟ . .

ـ انك لثرثارة . .

فتجيب هادئة ، وكأنما الاهانة لم تصبغ وجهها الملون :

ـ كلا ، لست كاذبة .

ـ لقد اختلقت كل قولك .

فأردفت محملقة بعينيها الواسعتين :

ـ أوتظنني مخبولة ؟ . . وكيف تستطيع امرأة مثلي ان تختلق شيئاً كهذا ؟

كانت تيريزا تواصل كلامها والناس متكئون حولها يستمعون مصدقين ، بكثير من الاهتمام . وروّاد الماخور في انجذاب نحوها لكأنهم يبحثون عن شيء . . وقـــد وجدوه عندها . . ويهزأ المستمعون من الطلاب ، بل ويبصقون ويلعنون .

حاولت تيريزا بذر العداوة بيني وبين صحبي الذين أحبهم من كل جوارحي ، فأجيبهم مبطلاً قولها بأن الطلاب يحبون الشعب ،

وهم انما يدرسون لاسعاده واعلاء شأنه . فتقول ساخرة :

ـ ان هؤلاء الذين تنعتهم هم من طلاب «فوسكري سنسكايا» اما الذين اعنيهم فهم طلاب الكنائس من « أرسكوليه بوليه » اولئك الايتام . فعندما يغدو اليتيم يافعاً ينقلب بكل تأكيد الى لص خبيث لا أحد يردعه عن فعلته .

خلقت هذه الأحاديث في رفاقي شعوراً أعبّر عنه بكلمة تيريزا « وهكذا ، فان الشعب أسوأ منا » وإنه من المؤلم حقاً أن أسمع أقوالاً صادقة من مكان كهذا ، ودعايات كاذبة حول الشباب المثقف ايضاً .

واصبح من الواضح لكل انسان ان رفاقي انما يتعلمون من الجامعة ، وان الشعب يتلقى دروساً وضيعة من بيوت الفحش هذه . وكنت اراقب بنات الهوى وهن مضطجعات او راقصات على موسيقى هائجة ، فلم تتأثر نفسي حتى انني كنت اشعر نحوهن بما يشبه شعور المتدينين من العرب المسلمين .

واستحال علي تثبيت طلب الحرية في قلوب عمال المخبز . إذ كنت أسمع بعض قولهم :

ـ لقد قصت علينا بنت الهوى اقاصيص عجيبة ، فكان حديثها اجمل من حديثك .

ويهزأون بي دون رحمة ، فأتحمل بصبر وجلد ، ولكنني كنت أسأم من تهاونهم في طلب الحياة الصريحة ، وكذلك كنت اشعر بشيء من الكراهيـــة لرضاهم وخضوعهم لصاحب المخبز الشمل . وأصل بتفكيري الى اضغاث أحلام أتمناها ولكنها واهية .

- ١٣ -

الى جيلدا

تعثرت في احدى الليالي ، العاصفة ، الزاخرة بالأمطار ، برجل كان ممـــدداً تحت الثلج عندما كنت عائداً من زيارتي لآل دورينكوف ، فتقاذفنا السباب والشتائم ، انا باللغة الروسية وهو بالفرنسية :

ـ يا للشيطان . . !

وانهضت الرجل مستغرباً منه نومه في هـذا الجو البغيض ، وحين انتصب اخذ يصرخ :

ـ عليك اللعنة . . اعطني قبعتي ، سأموت من البرد .

ووجدت قبعته بين الثلـج ، فنظفتها ، ووضعتها على رأسه . ولكنه انتزعها بعنف واخذ يلوح بها صارخاً بوجهي ، شاتماً إياي ، وطالباً مني ان ابتعد عنه . وفجـــأة عاد الى سقوطه فوق الثلج منبطحاً كأنه على فراش ، وهو ينادي :

ـ لينا ، لينا . . أين انت يا لينا ، اني على وشك الموت .

كان الرجل في حالة سكر شديد ، وإن تركته فالموت حليفه لا محالة . ولما سألته عن مقرّه اجابني :

ـ لا ادري اي طريق اسلك .

فأحطت خصره بذراعي وحملته الى مكان امين ، وسألته ثانية عن مقره فأجاب بتلكؤ :

ـ عند البولاق . . نعم قرب الحمام العام .

كنت اسمع اصطكاك اسنانه وهو يقول بالفرنسية متمايلًا عن

شمال ويمين :

– آه لو تعلم .. !

– ماذا تقصد ؟

ثم توقف فجأة وهز يده ببطء متكلماً بشيء من التكبر :

– آه لو كنت تدري ، الى اين آخذك الآن .. !

وسقط ثانية ، وعدت الى حمله ، واخذته الى البولاق ، وهو يردد طوال الطريق :

– لو كنت تدري ، لو كنت تدري ! .. ولكـــني اكاد اموت برداً .. رباه .

وعندما وصلنا الى البولاق طلبت منه ان يخبرني أين يسكن ، ولكنه اندفع نحو باب بيته ، وقرعه برفق وخفة هامساً بي :

– اصمت ..

فتحت الباب امرأة بثوب احمر ، بمسكة شمعة تحترق بيمينها ، ساندة الباب بشمالها وانزوت جانباً كي تدعنا نمر . وأخذت نظارتها من جيبها الصغير ووضعتها على عينها اليسرى ، لتدقق في شكلي . فأخبرتها ان الرجـل في حالة مؤثرة ، ومن الواجب ان تخلع عنه ثيابه ويوضع في سريره . فأجابت مستفهمة ساخرة :

– نعم ؟ .. !

كان صوتاً عالياً وذا نغمة رنانة ، ثم قلت :

– يجب ان تُغمس يداه في ماء بارد حتى يستريح .

فأشارت بنظارتها الى احدى زوايا الغرفة ، لم يكن في ذلك المكان سوى لوحة مصور عليها نهر يتدفق واشجـــار مائلة .

فاستغربت ذلك ونظرت الى وجه المرأة الجامد بغرابة ، ثم مـا فتئت ان سارت تجاه الطاولة ، وجلست تفرز اوراق اللعب تحت ضوء مشكاة مغطاة بستار وردي اللون ، وتفحصها بدقة كدقـة اللاعب . وكلمتها بحدة :

– هل لديكِ قليل من الفودكا ؟

ولكنها لم تجب اذ كانت منهمكة في مـــدّ ورق اللعب . والرجل جالس على الكرسي ، ورأسه على صدره ، ويداه الحمراوان مسبلتان عن جنبيه ، فأرحته على أريكة طويلة وشرعت في خلع ثيابه . لم استطع فهم ما كان يحدث في هـذا البيت ، وشعرت كأني سابح في اضغاث احـــلامي . فتشاغلت بالصور الشمسية المعلقة على الجدار . وقد لفتَ نظري شريط ذهبي مكتوب عليه :

« إلى جيلدا ... الى التي لا مثيل لها »

وعندما بدأت افرك له يديه صرخ في وجهي :

– انتبه .. عليك اللعنة .

اما المرأة فكانت تنشر اوراق اللعب بتؤدة دونما حـراك ، وانفها الحاد كان يعطيها مسحة الطـــائر ، يضيئه زوج من العيون الجامـــدة . ولكن حين سمعت صوت السكير يرتفع ، قالت :

– هل شاهدت ميشو يا جورج ؟

فتربع جورج بحركة سريعة على الأريكة ودفعني من طريقه وهو يجيب :

– ماذا ؟.. ولكنك تعرفين انه ذهب الى كييف .

– وسيعود قريباً ؟

– نعم ؟.. بلى بلى سيعود قريباً ، قريباً جداً .

فرددت المرأة هذا القول :

– ماذا ؟ ماذا ؟

فانتفض جورج من مكانه ، وركع عند قدميها متكئاً على ركبتيها وقال شيئاً باللغة الفرنسية وأجابته بالروسية . ثم أعاد جورج قوله وهو ممسك بيديها :

– انت تعرفين .. لقد تهت في الطريق ، اذ كان الجو معكراً صعباً ؛ الثلج يندف ، والعواصف تزمجر ، وكدت أموت من شدة البرد .

كان جورج في الاربعين ، وعلى وجهه علائم الاضطراب والخوف حتى كاد ثمله يمحي ويضمحل .. وقالت المرأة :

– سنسافر غداً الى كييف .

– غداً ، كما ترتأين . ولكن يجب الآن ان تستريحي . هلا ذهبت الى فراشك ، ان الساعة متأخرة ، والليل قارب ان ينتهي .

– وميشو ، أيصل غداً ؟

– كلا من الصعب عليه المجيء وحده . لأن هناك عاصفة هوجاء . اذهبي الى فراشك .

واخذ المصباح من على الطاولة ، منيراً لها الطريق ، وهو يعبر الردهة أمامها ، من باب صغير محاط بمكتبة صغيرة الى غرفة نومها . أما انا فبقيت وقتاً طويلاً في نفس الغرفة اذرع أرضها أحياناً ، وأتسلى بأشياء اخرى ، أو انصت الى الصوت المنبعث من الغرفة المجاورة التي دخل اليها الزوجان . ثم

عاد جورج والمصباح في يمينه قائلًا :

ـ الحمد لله . . لقد ذهبت الى فراشها .

وأعاد المصباح الى مكانه على الطاولة محنياً هامته كأنه غارق في خضم من الأوجاس ثم واصل كلامه دون ان يلتفت الي أو ينظر نحوي :

ـ كنت على وشك الموت فأنقذتني أنت وأني لأشكر لك صنيعك الجزيل هذا . . ها ، ومن انت ؟ لم تخبرني عن اسمك وحقيقة حالك ؟

ـ أهذه زوجتك ؟

ـ نعم زوجتي . . هي كل ما أملك من هذه الدنيا . ام يجب أن أشاركك في قدح من الشاي ؟ إن الجو بارد .

وبعد أن خطا خطوة نحو الباب ، توقف كأنه تذكر شيئاً ، نعم لقد أخذ خادمه الى المستشفى ، فعرضت عليه ان يوقد الموقد فوافق باسماً ـ ناسياً أنه ما يزال بنصف ثيابه خالعاً الاقمصة العليا ـ وانطلق معي ليريني المطبخ ، وهو جاف . وهناك وهو متكىء على الموقد قال :

ـ كدت أموت برداً لو لم يسعفني الله بك ، فاني اشكرك من جديد ؟

ثم حملق بوجهي بعينين قد غزاهما الرعب الشديد وقال :

ـ رباه ! ما عسى ان يحدث لها لو لم تنقذني من استغراقي تحت الثلج ؟

والتفت نحو الباب بطرف عينه ، وهمس لي سراعاً :

ـ ألم تلحظ أن بها مساً من الجنون ؟.. لقد أنجبت ولداً ، كان أعجوبة الموسيقى ، ولكنه منذ عامين انتحر بعد تعب من ثباته لبلوغه القمة . ولا تزال زوجتي تفكر انه سيعود .

وفيما نحن نحتسي الشاي أخذ الزوج يتكلم جملاً غير مترابطة ، وبصوت خافت يكاد لا يسمع ، واخـبرني كيف التقى بها ، وتزوجها منذ اعوام :

ـ كان ذلك في احدى قرى الريـف حينما كنت مدرس التاريخ في مدرسة ابنها ، وأعطيه دروساً خاصة في بيته كل مساء . وكانت هي احدى السيدات الراقيات في القرية ، وقد وقعت بها لوعة الحب ، فهجرت زوجها النبيل الاقطاعي الالماني الاصل . وحين احتجنا الى المال غنّت في الاوبرا ، وكم كنا سعيدين في تلك الايام ، مع ان النبيل حاول ان يعكر عليهـا صفو عيشها .

كان يتكلم بتؤدة خافتة ، وعيناه جامدتان نحـو الباب بسهر غامض ، ثم تطلّع اليّ في قلق ظاهر وسألني :

ـ ولكنك لم تخبرني عن احوالك ، من أنت ؟ .. ها أظنك عاملاً في مخبز في مكان وضيع ، غريب هذا حقاً !.. انك لا تتناسب وهذا العمل ابداً ، ولكن لم ذلك ؟

كان في صوته نبرات من الوجل يشوبها عدم الثقة في نظرته التي طرحها علي ؛ نظرة انسان أحس انه وقع في كلامـه بهوة سحيقة . ثم قصصت عليه نبأ حياتي التي عشتها حتى الآن ،وبعدها سألني كأنه يحاول تغيير الحديث بعض الشيء :

ـ هل تعلم قصة البطة القبيحة ؟ انها قصة خرافية حقاً .

فلوى وجهه نحوي قليلاً بشكل بشع وأردف :

ـ ان قصة كهذه تغريك تماماً ، وقد أغرتني حين كنت صغيراً ، اذ احببت أن أصبح شيئاً مرموقاً في حياتي ، كما رغبت تلك البطة ان تصير طيراً أليفاً .

ـ كان من المتوقع ان ادرس في الاكاديمية ، ولكني فجأة ، تحولت في دراستي الى الجامعة ، كان ابي قسيساً لذا فانه منعني من إرثه . فدرست التاريخ في باريس ، وحين وصلت في دراستي الى العصر الحديث أحسست بالبؤس يعتورني لما ألمّ الشقاء بتلك الشعوب المتضاربة ، وقد كتبت عن واقع الحياة الحاضرة كتابات طويلة .

ثم توقف قليلاً كأنه يستعيد ما قد سلف وسها عنه ، او يستجمع من مخيلته ما طاب له ان يجمع ، واردف :

التقدم ، التقدم ، لقد ظهر هذا النوع من الحياة للسخرية من الشعب ، اذ ليس لها اي معنى ولا اي منطق ، اذا لم تتآزر جموع الشعب كله ، فانها لا ترقى إلا بالتعاون . وحين تنعدم سلطة الاقلية الحاكمة ينعدم التقدم ، وكل ما نريد من حياتنا ان تسهل مشقة العمل ، ولكن في اعمالنا الحديثة هذه ، تجعلنا اشقياء اكثر .

هذه المعامل والآلات المتزايدة الصنع ، ترغب المزيد من العمال ، بينما نحن في امس الحاجة الى الفلاح حتى يبذر ويحصد . الامر الوحيد الذي لانستطيع استخلاصه بالهين هو الطعام ، فعلينا ان نعمل من اجله . . . « كلما قلّت مطالب الانسان ازداد سعادة وكلما زادت شهواته نقصت حريته وتعب » .

قد أكون غيّرت حرفية كلماته ، ولكن الأصل والأفكار نفسها عبرت عنها بجودة لاني حفظتها عن غيب . وكانت هذه المرة هي الاولى التي تعرض لي افكار جريئة كهذه وبشكلها السافر هذا .

وبعد أن أنهى كلمانه السالفة صمت قليلًا ، وأراح نظره الى الباب من جديد ثم واصل بهمس مسموع ، لكأنها صرخة داوية :

ـ احفظ عني هذا القول « لا تتعدى حاجاتُ المرء الرغيف والمرأة ، ففي الاول يشبع نهم بطنه ، وفي الثاني يطفىء غريزة جنسه ، وهذان الامران فقط هما سبيل لذته » .

كان يتحدث عن المرأة بصوت خافت لم أسمع بصراحته بعد ، كما لم يسبق لي قراءتها . وفجأة تحولت لهجته وشابهت لهجة اللص بوشكين ، وتحدث عن اشخاص ، وذكر اسماء لم اسمع بها قط .. بياتريس ، فيامينا ، لورا ، نينو .. وتحدث عن ملوك وشعراء عشقوا ، وبعد أن القى عليّ قصيدة بالفرنسية قال :

ـ الحب والجوع لا يجتمعان .

فهمت منه هذه الكلمات تمام الفهم ، وعبرت عنها بكتاب اسميته (الملك جوع) . كل الناس تبحث عن تناسي الماضي ، وتتحرى بيوت العهر ، ولكنهم لا يطيقون ان يبحثوا عن المعارف والفضيلة .

لقد اذهلتني فكرته الاخيرة حقاً ، وجعلتني أعود بذاكرتي لأحفظ اقواله من جديد .

- ١٤ -

آلام الثورة

كانت الساعة السادسة وبضع دقائق صباحاً عندما غادرت دار استاذ التاريخ عابراً الرياح العنيفة اللافحة، والثلوج الكثيفة المتساقطة بقوة . وفي هذا الجو الشاعري عادت الى ذاكرتي كلمات معلم التاريخ ، وتوقفت في حنجرتي وكادت تخنقني لأعود الى ذلك المكان الوضيع ؛ الى المخبز ، واعيش بين الشعب حياة صعبة المسلك . .

فحولت وجهتي قاصداً الحيّ التتاري ، واخذت اتجول في حواريه حتى وضح النهار ، وامحى الظلام ، وبانت اقدام السابلة فوق الثلوج . لم اقابل معلم التاريخ بعد تلك الزيارة كما انني لم ارغب في مقابلته ولكني سمعت مرات كلماته عن تفاهة الحياة وسخافة العمل ، سمعتها من شفاه جاهلة معنى الحياة ومن اناس لا مأوى لهم ولا مشرب ، خاوي الوفاض حتى من الطعام الذي يسد لهم الرمق . ومن رجال ونساء مثقفين بمبادىء الكاتب العالمي تولستوي ، وكذلك سمعت كأقوال معلم التاريخ ، من رجل دين يدرس اللاهوت وكذلك من كيميائي يعمل بالمتفجرات ومن عالم في التشريح ومن آخرين غيرهم ، وقد سرت بين الاوساط بشكل لم اعهده . وبعد ان مضى على حادثة معلم التاريخ ثلاثون عاماً عدت فسمعتها من صديق حميم يعد نفسه سياسياً ماهراً ، حين نتجاذب اشتاتاً من الاحاديث . وابتسم ابتسامة سيد الوجوش وقال بصراحة تامة :

– يا صديقي اليكس مكسيمتش . ما جدوى العمل المضني ؟ علوم . أكاديميات . طائرات . انها لأعباء ثقيلة الوطء عليّ ولست بحاجة لانهك قواي بها ، ثُجل ما أريده من هذه الحياة ، هو منزل بسيط وامرأة عاقلة اضمها الى صدري ومتى يحلو لي ، وتشاركني الحياة بروحها وجسمها . اما انت فلم تعد من طبقتنا انك سموت واصبحت في مصاف العلماء ، وتفكيرك يشابه تفكير رجال الدين ، وتقول بان الانسان خلق للعبادة فقط . اليس كذلك ؟.

– اعتقد ان اليهود وحدهم يدينون بهذا الاعتقاد .

– كلا لا يعلم عن اليهود احد غير الشيطان ، انهم شعب بهيم غامض .

وقذف بسيجارته الى النهر ، واخذ يرقبها وهي تسير في الماء .. كنا جالسين على مقعد حجري على رصيف « النيفا » في ليلة من ليالي الخريف الصفراء يضيئها القمر الهادىء ، وكلانا منهوك القوى ، نتحرّى منافع الحياة ومصالحها ثم اضاف قائلا :

– انك معنا ولكنك لست منا ، وإني لشاهد على هذا ، يحب العلماء القلق والاضطراب ويرتبطون دوماً بالثورات ، كالمسيح ذي المبادىء الثائرة يهدد بعالم آخر . وكذلك كل العلماء سائرون على نفس الوتيرة .

يثور الرجل ذو المبادىء ، فيلحق به العاطلون والرعاع لانهم لا يجدون ما يعيشون به اما العمال فانهم انما يثورون من اجل الثورة مطالبين بالتقسيم العادل في منتوجات العمل . ولكن حين يبلغون المناصب والرتب ، هل يرضون بما كانوا يطالبون به ؟

- كلا سينفصلون ويتطرفون ، وسيحاول كل واحد منهم ان يجد لنفسه زاوية هادئة في مكان ما ليعيش فيها ..

ـ انك تقول عن فن الآلات وانتاجها . ولكنها لن تأتي بثمرة ، الا انها ستحمل اكتافنا بالنير ، وتضرب على معاصمنا بالاغلال .

لماذا اعيش وسط هذه الآلات وبين صخب المدينة ، وانا لا أريد الا كوخاً بسيطاً في مكان هادىء ... قل ما تشاء عني فلو تخلصنا من هذه الأشياء : الآلات والكهرباء وانابيب المياه .. لكانت الحياة سهلة المرتقى ، نعم .. وكل هذه الامور تأتينا من العلماء . لذا فانا مجبر على القول بأن العلماء فئة فاسدة .

ـ لا يوجد يا صاحبي شعب على وجه البسيطة يحسن من تغيير اندفاع المياه او اندلاع الثورة كما فعلنا نحن الروس .

ـ ان الملايين منا يفكرون بان الشعب الروسي هو ارقى من يفكر في هذا العالم ، ولكنهم لا يحسنون كيفية التعبير عنه . لا تغضب . انما اقول الصدق ، ومن الممكن ان نجعل الحياة اكثر سهولة وأحسن .

وبعد ان غادرني صاحبي ، عدت الى تفكيري عن هذا الشعب الذي يريد الحد الادنى من العمل ونصيباً اوفر من المتعة حتى إنهم يريدون التخلص من العمل . فكيف انهم رجالاً ونساءً يصبرون على هذه الحياة ، ويقاسون آلام الثورة ؟ .. ألأنهم يريدون متعة الدنيا ؟ !

وتذكرت في تلك الآونة بعض اشعار هانيريك ابسن :

« لست محافظاً كما تنعتونني .
ولن أكونه مدى الحيـــاة »
« لست قلّباً بمبادىء دنياي
انما أصلحوا أخطاءكم فنعمل سواسية »
« لم تكن الثورة التي اذكرها
ثورة غش في الحياة ، أو خداع »
« ثورة العمل فيها بالطبع كان الطوفان »
« وقد خدع قبلنا ابليس وطاف نوح على المركب
« لنجدد عزمنا ايها الاصدقاء الراديكاليون »
« وسنحتاج الى مقاتلين وخطباء وكتاب عظام »
« استعدوا لثورة طوفان جـــديد »
« وانا بكل سرور اول من يطلق على السفينة الرصاص »

- ١٥ -

النجدة ... النجدة ...

إن دخل دورينكوف الذي يجنيه من حانوته الصغير قليـل وعدد المنتسبين بنمو مستمر ، لذا كان يقول لي :

— علينا أن نفكر بشيء جديد .

ثم ينتهد ويعود بعدها ليبتسم . يبدو من سيمائه كأنه قد حكم على نفسه بالعمل الشاق والجهد الطويل لخدمـة الانسانية واعانة المجتمع . وسألته اكثر من مرة :

– لماذا تعمل كل هذا ؟ .. ولمن ؟

ولكنه لم يفهم ما أعنيه ، إذ كان يجيب بكلمات تحتاج الى بعض التفسير ، وأسأله :

– هل يحتاج الشعب لاظهار المعرفة ؟ وهل الشعب بحاجة اليها ؟

– طبعاً ! ولم لا ؟ ألست تريدها ايضاً ؟

– نعم هذا ما اقناه ولكني أتذكر معلم التاريخ واقواله .. دوماً يبحث الرجال عن نسيان السالف ، ويفتشون عن مقر بيوت اللهو انهم لا يبحثون عن الحقيقة ولا عن المعرفة ، وانه لمن المشين ان تطرأ مثل هذه الافكار على عقولكم وانتم ما زلتم في الحول السابع عشر .. كان قوله هذا مثال الحارس لي . اذ اتذكره في كل آن حتى ولو قرأت القصص لانها تنسيني ما كنت فيه ، اما القصص التي تحوي الجرائم الواقعية والحوادث الغريبة فانها تحمسني على قراءتها وكذلك الناس اجمعين .

وبما ان دخل دورينكوف من حانوته قليل فانه قرر ان يفتح مخبزاً ، ولما كنت عضواً في جماعته فقد طلب مني ان اعمل معه واراقب الخباز ، لئلا يسرق من الطحين والبيض والسمن ، ولكي يتقن عمله .

وهكذا انتقلت من مخبز ضخم وقذر ، الى آخر صغير نظيف وقد انيطت مسألة تنظيفه وتنظيمه بي .

كان شعر الخباز حول صدغه رمادياً ، وله لحية طويلة ووجه صغير فيه عينان سوداوان لامعتان تنمان عن ذكاء وبصيرة ، وفم عجيب الشكل ، شفتاه غليظتان مقلوبتان فكأنما يقبل انساناً . يظهر

لك تماما بأنه رجل هادىء ساخر .

وقد سرق في اول ليلة بدأ يعمل فيها عشر بيضات واكثر من ثلاثة ارطال طحين وكمية من السمن فسألته :

— لمن هذا ؟

— لفتاة صغيرة فقيرة أعرفها وستعرفها .

ثم تطلع الي بعجب وقال :

— انها جميلة جداً

حاولت ان افهمه بان العالم يعتبر السرقة — مهما كان شكلها — جريمة ، فلم يقتنع بضعف بلاغتي ، وربما لم اقتنع بها انا نفسي . وعلى كل لم يكن لاشاراتي اي تأثير في عقليته .

كان مضطجعاً على صندوق كبير ناظراً الى النجوم من النافذة وأخذ يقول :

— عجيب هذا ! أيلقي عليّ محاضرة ؟ ! ولأول مرة شاهدني فيها . عجباً هيه ! وعمري اضعاف عمره ! . . .

وعندما أنهى جولته في متابعة النجوم سألني :

— اين اشتغلت قبل الآن ؟ . يبدو لي أني قد شاهدتك في مكان ما . أعند سيمنوف ؟ . . كلا حسناً . لا بد أن اكون قد شاهدتك في اضغاث احلامي .

اكتشفت بعد ايام انه مغرم بالنوم وبإمكانه فعل ذلك في اي وقت وموضع ، حتى ولو كان واقفاً ، او ممسكاً بألواح الخشب . وحين ينام ترى ملامحه قد تغيرت . فيرتفع حاجباه ويتغير شكل وجهه وتدور احاديثه حول قصص الكنوز المدفونة والأحلام

الغريبة وتراه دوماً يعلن بكل ايمان :

« ان الارض زاخرة بكنوزها لكأنها اللوزينج ... او ان صناديق واطباق من الذهب الثمين نجدها في كل مكان. وقدحلمت مرات بأن في الارض داخل الحمام صندوقاً مصفحاً بالفضة محلىً بالجواهر راكباً احدى زوايا الحمام . وقد استيقظت مرة بعد ان رأيت ذلك الصندوق وذهبت من توي الى الحمـــام لأحضره . وظللت على عملي الى ان بلغت قامة رجل تقريباً ، فماذا تظنونني قد وجدت ؟ .. بعض عظام كلب وجمجمته .

وفيما انا كذلك اذ بي اسمع ضجيجاً من الحارة وعويل امرأة مجنونة تصرخ :

ـ اللصوص ، اللصوص .. النجدة ، النجدة .

ولا شك فاني اسرعت متخفياً ساخراً من فعلتي ».

وكثيراً ما كنت اسمع منه هذه الجمـــلة .. « يا له من شيء يضحك ! » ولم أر « ايفان كوزميتش لوتونين » يوماً يضحك قط! إذ كان حاجباه يتجعـدان بسخرية ، وتتوسع خياشيمه باستنكار وتكتظ عيناه باستكراه .

كنت اعجب من تمتعه وسروره بأحلامه مع انها ليست من الاحلام الخيالية ابداً وكانت حياته مثل احلامه بسيطة لا يسأل عنها ولا عن غيرها .

-١٦-

الحب نوعان

استيقظت المدينة بأسرها على اثر اطلاق النار بعد منتصف ليلة ربيعية . تزوجت ابنة احد أثرياء الشاي من غير ارادتها وقد اجبروها على قبول هذا الزواج ، وعندما علمت ان لا بد من قبوله اطلقت النار على نفسها بعد حفلة الزفاف فهرع الناس زرافات ووحدانا لتشييع جثمانها . وقد اشترك في الموكب آلاف مؤلفة من نساء ورجال وشباب وطلاب ، واخذ بعض الطلاب يلقون الخطب الى جانب رمسها ، ولكن الشرطة فرقت الجموع اخيراً .

كل طالب في الغرفة وكل من وقف بباب الحانوت يتحدث عن هذه المأساة الصارخة ، التي أجبرت فتاة في ربيع عمرها الأول ان تغادر حياتها مكرهة ... وفي المخبز قال ليتونين :

– كان من الأوجب على ذويها ان يهذبوها ويربوها خير تربية حين كانت صغيرة .

ثم يغير حديثه موجهاً قوله لي :

« لقد حلمت ليلة البارحة بأني كنت اصطاد سمكاً من بحيرة صغيرة جميلة ، ولم يطل وقوفي هناك حتى سمعت الشرطي يقول من خلفي : قف ..

– بأي حق ؟ ...

فحاولت الهرب ولكني لم اجد سبيلاً غير عبور البحيرة ، لذا قفزت الى الماء ، وبعد ان وصلت الى قعر البحيرة استيقظت ! »

كانت الحياة تسير عادية تقريباً لا تستوجب الانتباه الزائد اليها ، ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان بالنسبة لمخبزنا . لقد طرأ بعض التبديل في التنظيم إذ بدأ يعمل في الحانوت لبيع الخبز بنات عوضاً عن « اندريه » . فتيات مثقفات ، يطالعن الكتب وقفن يعملن بائعات .

الاولى اخت اندريه والاخرى صديقتهـــا ـ طويلة وذات وجنات وردية ولها عينان رؤوفتان . وظل الطلاب يأتون الى الغرفة ويمكثون فيها ويتحدثون بصخب ، مع ان أنـــدريه ـ صاحب الحانوت ـ يختفي جل أيامه ، فأصبحتُ العامل الاول في المخبز ومديره . فكان ليتونين يسألني :

ـ هل انت قريب صاحب المخبز ؟ أم هل يفكر بأن يجعل منك صهراً ؟

فأهز له برأسي نفياً فيعود الى كلامه :

ـ لا ؟ ! يا له من امر غريب ! ولِمَ يحوم الطلاب هنا داخل الحانوت ؟ أمن أجل البائعتين؟ نعم يجب ان يكون هذا . يا لهم من أغبياء ، اني لا ارى اي جمال في جسميهما حتى تجلبا نظر هؤلاء الشباب . وكذلك هم . هيأتهم متأكلة وألبستهم متسخة وليس على سيمائهم نقاوة الغرام حتى تقع البنات في حبائلهم ويهمن بهم .

قبيل الساعة الخامسة صباحاً من كل يوم او تزيد ، تقترب فتاة من مخبزنا ، لتجلس بالقرب من النافذة ، يتكيء على صدرها نصفا كرة مختلفا الحجم ويبدو صدرها كأنه كيس بطيخ ، وساقاها قصيران هزيلان ، كانت تجلس على الرصيف المجـــاور تنادي

والتثاؤب ما زال عالقاً على شفتيها :

ـ فانيا ! فانيا !

وهي خفيفة الظل، شعرها مجعد متناثر على كتفيها، مربوط الى الخلف بمنديل احمر زاهي الألوان محلّى بهالات نجوم صغيرة منكبة على جبينها الضيق القذر وتجعداتها تخف لتغطي عينيها الناعستين فترمقها بحركة كسولة بأناملها المتفتحة الرفيعة الى الخلف كأنها مولود رضيع. وكنت أتساءل في نفسي عن هذه الفتاة : ماذا يرى فيها المرء من الوداعة حتى يكلمها أو يغرم بها ؟.

وعندما يستيقظ الخباز ينظر ناحية النافذة ويسألها :

ـ أأنت هنا ؟..

ـ نعم ها أنذا ..

ـ هل رقدت هنيئاً ؟

ـ ولم لا ؟

ـ وبماذا حلمت ؟ .

ـ لا اتذكر ..

حتى في تلك الساعة المبكرة تسمع حركات في المدينة وإن كانت راكدة هائدة . فهناك صوت المقشات تكنس الارض ومن خلال الاشجار أغاريد العصافير وسقسقتها . وهرعت الشمس من رقادها فرمت علينا أشعة لطيفة يعكسها الزجاج والماء فتغـــدو المدينة لامعة باهرة .. كانت هذه اللحظـــات أحب وقت الي فأجلس قرب الباب وأنعم بهذه المناظر الخلابة الساحرة.

اما خبازنا فانه لا ينتبه الى كل هذا . ولم ينتبه ؟ وعنـــده

اجمل .. يتقدم من النافذة ويمد ذراعاً مكسوة بالشعر الخشن الى ساقي الفتاة يربت عليها ويمرغ يده بين ركبتها وهي ابداً خاضعة وغير مبالية بما يصنع وينادي :

– بيشكوف ، لقد آن اخراج الحلوى ، اسرع اليها قبل ان تلتهمها النار .

فأخرج الصيجان الحديدية وأضعها بجانب بعضها فيسرع هو ليرمي في حجرها كمية من الكعك الحار فتلتهمها بسرعة ، حارقة فاها ، وتقضمها بأسنانها الصفراء وتئن ، وعندما تذهب يفاخر بأنه يملك اجمل فتاة على بساط الكرة .

– إنها مثل الربيع وأجمل من الربيع ، كأنها حمل صغير مغطىً بوبرٍ ناعم مجعد . هل اعجبتك ، اني مغرم تماماً بها ، ولا أصاحب نساءً ابداً ولي من البنات ثلاث عشرة وهي احداهن .

كنت اصغى الى كلامه الطويل صامتاً متسائلاً :

– وانا أيجب ان احيا كحياته ؟. أمن الواجب ان يعيش كل انسان كما يعيش هذا الرجل ؟.

وعندما ينتهي خبيز الأرغفة البيضاء الكبيرة اسرع في حملها على اطباق خشبية الى حانوت دورينكوف ليبيعها ، ولما انتهى من عملي هذا ، أملأ سلة بالكعك وأحملها الى الأكاديمية اللاهوتية وألحق بهم قبل أن يشرعوا بالفطور .

وكنت أقف بالباب وأقدم الكعك نقداً او على الحساب وأتشبع بكل ما كانوا يتناقشون به عن « ليو تولستوي » وخاصة حين يتكلم الاستاذ جوزيف عن تعاليم تولوستوي . وقد كنت

اضع في بعض الاحيان كتباً تحت الكعك لأعطيها خفية للطلاب واحياناً اخرى يرمون في سلتي كتباً او رسائل لاوصلهـــا الى المكتبة .

وكان علي ان اوصل كعكاً الى مستشفى المجانين مرة في الاسبوع فقط . وأعبر الى قاعة المحاضرات لأسمع الطبيب النفساني «نجتيريف» يلقي على الطلاب بعض الشروح عن عوارض الامراض العصبية . وفي احد الأيام عرض علي الطلاب مريضاً مجنون «العظمة» وعندما ظهر المجنون في الردهة تملكني بعض الشعور بالضحك .

كان طويل القامة مرتدياً جلباباً ابيض ، ورأسة مغطى بقبعة نوم وحين رآني اضحك توقف عن سيره ناظراً نحوي بشزر فتراجعت الى الخلف قليلاً . وبينما كان الطبيب يداعب لحية المريض ويقوم بمحادثته باحترام واجلال كنت امسحُ يدي على وجهي لكأنه لسعني بكفه الغليظ حينما مرّ امامي . ويسأله الطبيب اسئلة كثيرة فيجيبه عليها بتعجرف وعظمة ، وبين كل لحظة يمد يـــده نحوي كأنه يريد أن يستخلص حنجرتي من رقبتي .

اما الطلاب ، فمنهم من يضحك من هذه الهيئة المثيرة ومنهم من هو مأخوذ بتقاطيع وجهه . كان يلقي الرعب في القلوب حين يتكلم من غير ان يعارضه احد من الحاضرين . والجميع كأن على رؤوسهم الطير الا المجنون والأستاذ .

كان يحدث عندما يتكلم ملاحظات عـــابسة بصوته العميق كأنه يأتي من تحت الارض او من وراء الجدران البيضاء ويتحرك بشيء من العظمة كأنه رئيس اساقفة . وقد حاولت ان انظم بعض

الاشعار عنه تحت عنوان :

« ملك الملوك ، صديق الله ومستشاره »

لم يكن لدي وقت خاص للمطالعة ، اذ أني أنهك بالعمل من السادسة صباحاً حتى الظهيرة تقريباً ، وأقضي النصف الثاني من اليوم بالنوم ، ولكني كنت اقرأ بين فترات العمل اثناء الراحة او بين الخبيز . ولما أتقنت العمل لأقف امام النار ، ترك الخباز لي مكانه مدعياً انه انما يريد تعليمي . وبصوت الصديق المعجب يقول لي :

ـ انك ماهر في عملك ، عن قريب تصبح خبازاً ممتازاً ولكنهم لن يحترموك لأنك ما زلت يافعاً ، ولم تبلغ السن المؤهل لتكون منفذ أوامر . لم يكن موافقاً على مطالعتي النهمة ، ولا يرضى ان أخفي رأسي طيلة ساعات فراغي بالقراءة فيقول لي :

ـ الا تأخذ لك قسطاً من الراحة ؟. الا تشعر بالملل من القراءة الدائمة ؟ كف عن هذه المطالعة يا أخي إنها تؤذيك .

كان يطلب مني الكف عن القراءة باهتمام ، ولكنه لم يسألني مرة عما تحوي هذه الكتب من علوم لأنه منهمك باحلامه اللذيذة وتخيلاته عن كنوز الارض المدفونة طيها .

كثيراً ما تتردد حبيبته البشعة على المخبز ليلاً ، فإما ان يأخذها الى المخزن حيث اكياس الطحين المكدسة كأنها الفراش ، أو أخرج لنصف ساعة تقريباً الى الشارع ريثما يناديني وافكر ـ وانا أتجول ـ عن فظاعة هذا الرجل وهذا الحب وشتان بين حبه الخشن الحيواني وبين الحب الذي اجده في الكتب .

وبالرغم من ذهابي الى حانوت اندريه لأشعل لأخته الموقد فاني دائماً أجعل زياراتي نادرة ، لاني اشعر ان وراء نظرتها إلي ، والتي تبين كأنها اول نظرة ، ابتسامة مخبوءة في ظل السخرية اللدودة.

اعتقد اني املك قوة في جسمي لا بأس بها اذ اني احمل اكياس الطحين دون تعب يذكر ولكن الخباز يتطلع إلي باعجاب ويقول:

— مع ان قوتك تساوي ثلاثة اضعاف قوة اي عامل ، فانك بطيء الحركة كالثور يتحمل النصب ويعمل على مهل .

في تلك الايام كنت قد قرأت من الكتب قدراً لا بأس به من النثر والشعر وقد أحببت الثـــاني ، واحببت ان انظم على وتيرته . وحين نخوض مضمار المناقشة بين بعض اصحابي استعمل ذات الجمل الضعيفة الاسلوب المفككة الاجزاء ، ولكني اعتقد تمام الاعتقاد اني مجيد بها لأنها تعبر عن ذاتي وتجوس في اعماقي . ولكني حينما اشتد في المناقشة كنت اغلظ في الكلام ، وكثيراً ما ويخني استاذي الطالب في كلية الرياضيات بقوله :

— حاول ان تجعل كلماتك نقية من كل عنف ، بسيطة بغير ضعف .

ويحدث لي كما يحدث لكل شاب في مثل سني إذ اني جد مستاء من هندامي وشكلي وكنت اعتقد اني سخيف الى ادنى مراحل السخافة فظ الهيئة كأن عظام وجهي متصعّرة وصوتي الخشن مذموم.

أما هي — أخت أندريه — فسريعة الحركة ، كأنها طـــائر السنونو يتأرجح في الفضاء ، وهي بقدّها الناعم وهيكلها الصغير لها صوت عذب فتضحك بنبرات ساحرة متعمدة اغرائي لتُنسيني

الحالة الاولى التي قابلتني بها . ولكن لم أرد ذلك وكنت أشعر بأن الاشياء الخارقة للطبيعة ممكنة الوقوع وتسألني أحياناً :

ـ ماذا تقرأ ؟

ـ وماذا يهمك مما اقرأ ؟...

ـ ١٧ ـ

لقد خلعت قميصها

حين دخلت حبيبة الخباز وسط الليل وبدأ يداعبها قال لي :

ـ اخرج برهة .. ها . ولماذا لا تذهب وتلعب مع ابنة صاحب العمل ؟. كيف تترك هذه الفرصة تضيع منك ، لله دركم انتم يا معشر الطلاب !

وعدت الى كلامي السابق واخبرته باني اسحق له رأسه ان هو تجرأ وأعاد على مسمعي قولاً مثل هذا ، وسمعته يجيبني :

ـ لماذا تغضب من قولي ؟. القراءة المتواصلة هي التي جعلتك تسير طيلة النهار كأنك احد المجانين ، واحتضانك الكتب بهذا الشكل انساك ما تطلب نفسك الجائعة .

تركتهما لوحدهما والجرذان تتراكض في ارض المخبز ، وخرجت الى الباحة . المطر يتساقط في كسل وبلا صوت ولكنه ما غير من حرارة الطقس البارد المثقل برائحة حريق . اذ كانت بعض الغابات تحترق عن بعد .

كانت نافذة البيت المقابل للمخبز مفتوحة وينبعث منها نبرات

موسيقية وخيوط من الاضواء الباهتة :

« منذ الازل القديس فارلامي بشكله ... المهيوب ..

يبتسم لمريديه وهو مغتبط حبور .. »

ثم عاودني قول الحباز بابنة صاحب العمل وتخيلت « ماريا دورنيكوفا » مستلقية على ركبتي في نفس الآونة حيث حبيتبه على ركبته شعرت بنفسي أكره ذلك الحلم البغيض .

« من غروب الشمس الى شروقها »

« اغنية عذبة ، وكأس .. القديس يطلبها »

« ولولا كلمة - هُمْ - فيها »

« لتشبّع القديس نفسه بها »

كان يعقب الغناء صوت رخيم مثير ضاحك ، فتوجهت ناحية النافذة واتكأت على ركبتي لأنظر الى مصدر الصوت .. رأيت فتاة جالسة على طاولة صغيرة تكتب على ما يظهر رسالة غرام ، ثم رفعت رأسها تفكر ، وحملت بريشتها الزهرية خصلة من شعرها الأحمر الطويل ورفعتها الى الخلف بحركة مغرية جذابة ؛ كان صوتها ساطعاً ببسمة غارقاً بفكرة ، سابحاً بملكوت عليا ، وبحركة ظريفة مرغوبة طوت الرسالة وغلفتها بمظروف انيق .

ثم تغيّر شكلها وأصبحت كأنها تهدد الرسالة ان لم تصل مشيرة بأناملها الرقيقة مهددة اياها بمواعيد وكلمات . وسرعان ما قطبت حاجبيها وعادت تفتح المظروف وتعاود قراءة الرسالة ثانية بلهفة وهيام ثم وضعتها بغلف أجمل من الأول وعنونت المظروف ورفعته إلى الأعلى كأنه علم أبيض للاستسلام .

وأخذت ترقص على رؤوس أصابـــع اقدامها مرحة مبدية حركات مغرية ساحرة ثائرة الى ان غابت لحظة في الغرفة الثانيـة وعادت وقد خلعت قميصها العلوي لتبدو أشرق وأرق .

انحنت والتوت كأنها خـلوٌ من عظام ، أو كأنّ هذه الصبية من غصن ريان وأخذت المصباح من على الطاولة واختفت ثانيـة ولم تعد .

عندما يبقى الانسان منفرداً في مكان ما فان حركاته الطبيعية تشذّ لتتغير ويعتقد الناظر بأنْ ليس هذا الا مجنوناً .

وتابعت طريقي عابراً الباحة ووجهتي المخبز وأخذت اتساءل عن لون الحياة التي تعيشها هذه ، او غيرها ، في بيتها عندما يأتي لزيارتها طالب شاب ذو شعر رملي . وفعلاً قد أتى هذا وجلسا يتكلمان همساً ، وأصبحت هي غيرها منذ لحظات خجولة عاقلة تدير عينيها بتؤدة خائفة .

اقتربت خليلة الخباز مني وهي ملتفة بشالها العتيق وقالت لي :

– ادخل .. لقد انتهينا .

وأخذ الخباز يفاخر بجسارة الفتاة وبقوتها الجنسية أما انا فشعرت بالسأم المقيت وتكهنت بأني سأروح بين زوايا البؤس بعد مدة .

– ١٨ –

ثورة جسمي

كان المخبز ناجحاً تماماً في العمل . حتى أن دورينكوف فكر بأن يفتتح مكاناً أوسع ، ويضع مساعداً ثانيـاً معي فابتبشرت

بالراحة بعد أن اكل التعب كاهلي وحدي . وقد وعدني الخباز بقوله :

– ستصبح في المكان الجديد المساعد الرئيسي وسأطلب منهم أن يرفعوا من راتبك الى العشر روبلات شهرياً ، وسأقول لهم بأن هذا حق وواجب .

فهمت من فحوى كلامه هذا ، بأنه يريد أن اعمل مكانه ، انا المحب للعمل وبالفعل اعتقد أن التعب يناسبني ، وبه اخفف من غلواء تفكيري ويهدىء من ثورة جسمي الصارخة ويقول الخباز :

– اعمل هذه الكتب يا أخي ، انها لا تصلح الا طعماً للفئران ؛ دعها وشأنها وخبرني .. ألا تحلم أحلاماً جديدة جميلة ؟ وبالطبع انت تحلم ، ولكنك مغلق الفم لا تكلم انسياً . تكلم لا خوف على احلامك كلنا رجال .

وقد انقلب الخباز معي رأساً على عقب إذ بدأ يحترمني الاحترام الزائد ، ويطربني بالاجلال . وأظن انه يفعل هذا خوفاً من صاحب العمل بعد ان تبين له اننا على وفاق ومع ذلك فانه كان يسرق صراحاً أمامي وغصباً عني .

– ١٩ –

ماتت جدتي

لم استلم خبر وفاة جدتي الا بعد سبعة اسابيع من دفنها برسالة مقتضبة مختصرة تبين أن الجدة قد سقطت من مدرج

الكنيسة حين كانت تتسول وكسرت ساقهـــا ثم تفسخ العظم وتسمم الدم .

وقد علمت أن جدتي – هذه المتسولة – كانت تعيـل اولاد احد ابناء عمي الثلاثة ، وقد كتب لي ابن عمي في هـــذا الصدد يقول :

– لقد وارياها التراب في باحة كنيسة « القديسين بطرس وبولس » حيث يرقد فيها كل اقاربنا . لقد بكى على رمسها كل شحاذي البلد ، لانهم كانوا يحبونها حباً صادقاً ، وحين اتى جدي ، طردنا جميعاً فأختبأنا خلف بعض الاشجار نرقبه ، فجثا على ركبتيه قرب قبرها يناجيها بانه سوف يموت قريباً بعد ان فارقته حليلته .

اما انا فلم أبك ولكني شعرت بلفحات مثلجة تلفح جسدي الهزيل فتهزه هزاً فجلست على بعض الأخشاب المتراكمة فوق بعضها في الباحة .

شعرت بشوق مرير للتحدث الى أيّ امرىء عن مزايا جدتي ، تلك الحكيمة العاقلة ام الجميع ومن أمد طويل حملت هذه الرغبة المنطوية في نفسي التي تريد أن افرج عنها لايٍّ كان . وحين لم اجد شخصاً أخصه بهذه الذكريات بادت او كادت أن تبيد .

وقد تذكرت قصة لانطوان تشيخوف ، كان بطلها حوذياً يكتم حصانه بعد موت ابنه ، ولكني هزئت من نفسي باني لا أملك حصاناً اكلمه عن حزني ولا حتى كلباً ، كان في المخبز جرذ ولكني ما تجرأت على أن أكلمها بمصائبي لأن عددها كبير كما أنها لا تظل صامتة ، مع اني كنت على أحسن العلاقات معها .

أخذ الشرطي «نيكي فوريج» يحوم حولي كأنه الباز المفترس كان طويل القامة ، حسن الهندام ، شعره فضي لامع قصـــير ، وذقنه عريضة ومرجلة . كان ينظر نحوي كمـــن ينظر الى اوزة سمينة ، وقد قرب عيد الميلاد ويقول :

ـ لقد سمعت بأنك مغرم بالقراءة ، أليس بصحيح ؟.. وأي نوع من الكتب تقرأ ؟ التوراة ام قصص القديسين . ؟

ـ نعم ، لقد أنهيت قصص القديسين والتوراة ..

فبدا العجب على وجهه ، ثم قال مهمهماً :

ـ حسناً .. قراءة شرعية ومفيـــدة .. وماذا تعرف عن « الكونت تولستوي » ؟. اقرأت عنه شيئاً ؟..

لقد قرأت بعض مؤلفات تولستوي ولكنها ـ والحمد لله ـ من الكتب التي لا تهم الشرطي وقلت له :

ـ وما هذه المؤلفات ؟! كتابات عادية بسيطة ، يجيدها كل انسان حاول أن يقلدها. ولا أنكر ان له مؤلفات تستحق القراءة حيث يهاجم فيها الكهنة وأعمالهم .

وإني وإن كنت ألمُّ باكثر مؤلفاته ، فقد تحاشيت المناقشة مع الشرطي لأنه ليس أهلاً لهذا . وتعددت المقابلات بيني وبين الشرطي ، وتنوعت وجهات الأحاديث بيننا الى أن اتى يومـــاً ودعاني لزيارته قائلا :

ـ أرجو أن تزورني في بيتي لنشرب كأس شاي معاً .

في الحقيقة لم تكن نواياه شرب الشاي ، إنما يهمه مني امر آخر ، لم أستطع فهمه ومع ذلك فقد واتتني رغبة الذهاب . فذهبت الى

الغرفة خلف الحانوت ، واستشرت الاصحاب فقرر الجميع أن أذهب وليس من اللائق أن أتهرب من ضيافة الشرطي لأنه سيزداد شكيمة عليَّ ، وحقداً على المخبز . لذا فقـــد دخلتُ داره في الوقت المحدد .

غرفة صغيرة تحوي اشياء كثيرة .. مدفأة روسية في الصدر وسرير واسع في الوسط ، وعلى اطراف الغرفة طاولة ومقعدان ، والى جانب النافذة الصغيرة مقعد خشبي عريض . كان يجلس على هذا المقعد بسترته المفككة ، مغلقـــاً النافذة بظهره العريض . وجلست إلى جانب زوجته خلف الطاولة . كانت هذه في عقدها الثاني ، صبية أنيسة لها عينان جذابتان لونهما غريب إلى الناظر إذ تختلفان بين الرمادي والأزرق ، ومن عادتها الدائمة ان تلعظ شفتيها العندميتين ، وحين تتكلم تعلم انها تخفي بعض الخبث خلف أنسها ، وقال الشرطي :

- لقد ربيّت عندي طفلة ، واصبحت الآن مومساً صغيرة . وسمعت انها تحوم حول مخبزكم ، إنها فتاة مرذولة أو بالحري كل النساء كذلك .

فانتفضت الزوجة غاضبة وسألته :

- كلهن .. ؟

فأجاب بشيء من الغنجهية المتكبرة ، محدثاً صوتاً منبعثاً من تصادم أوسمته المعلقة على صدره ، كحصان ثار في مكانه .

- نعم ولا واحدة أنفيها من هذا اللقب .

كان يرشف الشاي من كأس امامه وهو يردد بعض الكلمات

الفظّة يلقيها على مسمع زوجه :

– كلهن مرذولات ، من ابنة الحانة إلى سيـــدة القصر ، لا استثني منهن واحدة ، ان قصة ملكة سبأ معروفة لديك ، كيف عبرت ألفي ميل وسط الصحراء لتبلغ الملك سليمان لارواء لذتها وشهوتها . وقيصرتنا هذه التي ينادونها بعظيمة مثلها . ولكن ماذا أقول !! . .

ويقصُّ عليَّ الحفلات الخلاعية التي تحييها في قصرها الامبراطوري وروى لي كيف ان رقيباً شاباً في الجيش سهر معهـا ليلة ، ولم يستيقظ من سريرها في صبيحة اليوم التـــالي الاّ وقد رفع إلى رتبة لواء .

كانت زوجته تستمع الى مايقول وهي تتلمظ بشفتيها من آن لآخر ، وتقرب ساقها من ساقي دون ان يشعر الزوج ؟ ثم غير حديثه قائلاً :

– والآن يا صاحبي . . يوجد في شارعنا شاب طالب في الجامعة اسمه « بلتنيوف »

فتنهدت زوجته بشوق وقالت :

– كم هو جميل وظريف يا نيكي ! . .

– من هو ظريف ؟

– السيد « بلتنيوف »

– احذفي لقب « السيد » اولاً لأنه لم ينته من الجامعة ، انما هو طالب كأمثاله الآلاف ، وثانياً ماذا تعنين بكلمة ظريف ؟

– اعني انه مرح في سن الشبيبة

ـ اعتقد ان المهرج على المسرح مرح ايضاً ..

ـ ولكن شتان بين الأثنين ، المهرجون يأخذون ثمناً لتهريجهم انما هذا فسجيته مخلوقة على التسلية

ـ اسكتي .. اسكتي .. وقد يبدو الكلب في سن الشيبة !

ـ ليس المهرج الا قرداً يلعب من دون ادراك .

ـ أمرتك بالسكوت . اتسمعين ؟

ـ نعم .. اسمع .

ـ حسناً ..

وعندها صمتت زوجته . والتفت نيكي ناحيتي ليتابع قوله :

ـ يجب ان تتعرف عليه لأنه شاب له قيمته في الحياة .

ـ ولكني أعرفه .

أجبته باني اعرفه لانه رآني مرات وانا اسايره في الشارع وقال :

ـ هل تعارفتما ؟

وهمهم باستنكار ظاهر وغضب متخفٍ ، وبينما مد بساط حديثه كأنه ذيل ريش نعام قد انبسط على جانبي الطير ، كانت تمنعني زوجته من الأصغاء اليه اذ تلاطف الساق بالساق وتحاول ان توقعني في حبها ، ثم قال اخيراً :

ـ هناك خيط ملحوظ في دنيانا . افهمت ؟ هذا الخيط موصول بالملك ، وهو العنكبوت .

فصرخت المرأة قائلة :

ـ ماذا تقول ؟

ـ اصمتي يا حمقاء قليـــلاً حتى اعرف كيف اوضح له غايتي

اذهبي واصلحي المدفأة

وبعد ان خرجت اضاف قائلًا :

– خيط خفي كخيط العنكبوت ، يمتد من القيصر اسكندر الثالث امبراطور روسيا حتى وزراء جلالته ثم الى الحاكم وبعده الى ذوي الرتب العالية .. لتصل إليّ والى ابسط جندي في قيادة الجيش ، سلطان هذا الخيط ؟ سلطان القيصر وعلينا نحن اصحاب الخيط – ان نحفظه من الدسائس والدخائل .

ومع ان الانكليز والبولونيين ، وبعض الروس يحاولون جهدهم تمزيق هذا الخيط انّى كان وبأي مكان مدعين ان ذلك لصالح الشعب .

ثم انحنى على الطاولة مقترباً مني ، هامساً في اذني بشكل غامض :

– أفهمت ؟ أعلمت لماذا اكلمك بهذا الشكل ؟ .. ان الخباز يمدحك ويقول بانك شاب نشيط وشريف ومنطوٍ على نفسك . اني ارى جماعات من الطلاب تحوم حول مخبزكم كل مساء وحتى ساعات متأخرة من الليل ، وهم كثيرو العدد . ماذا يقصدون باجتماعهم هذا ؟ عفواً . انا لا اقول شيئاً عن الطلاب ابداً . اذ ان طالب اليوم مساعد النائب العام غدا . وحياة الطلاب واعمالهم محبوبة مشفوعة تماماً ، ولكني انتقدهم لأنهم يسرعون في تخطي سبل الحياة بخطى غير متزنة ، ويندفعون مع أناس هم اعداء القيصر ويثورون ضده . اعتقد انك فهمت ما اقصد من كل كلامي هذا؟ وامر آخر اريدك ان تعلمه وهو ...

وقطع حديثه دخول رجل عجوز ، ضعيف الشكل هزيله ، في يده زجاجة من الفودكا ، ويظهر من سيمائه انه شرب الكثير منها ونظر الى الشرطي بانفه الاحمر وقال :

ـ هل تلعب الشطرنج ؟

وعرفني نيكي به قائلاً بحركة فيها قليل من الاهتمام :

ـ انه والد زوجتي ..

واستأذنت منهم السماح ،وأوصلتني زوجته الى الباب وقرصتني وقالت :

ـ ألا ترى الغيوم ؟ انها اصبحت حمراء كالنار ..

لقد استفدت كثيراً من زيارتي للشرطي ، اذ انه اعطاني فكرة صادقة وشرحاً وافياً عن هيكل الحكومة .. يمتد خيط العنكب .. يلقي بخيوطه على مظاهر الحياة وقد شعرت آنئذ أن الخيط يلفني أنني ذهبت .

وبعد ان اغلقنا الجانوت دعتني ماريا الى داخل الغرفة واخبرتني بأنها كلفت ان تسألني عما حدث لي مع الشرطي وعندما أفرغت لها ما في جعبتي من كلام قالت :

ـ رباه ! .. أخليلة الخباز هي احدى أقارب نيكي فوريج ؟ ولكن .. أمن الممكن أن يكون الخباز جاسوساً ويحاول استخلاص بعض الأسرار منك ؟ . من الواجب طرده من المخبز.

ثم اقتربت ماريا من النافذة تحملق في الفضاء وأنا أرقبها عن كثب ، حاقداً عليها لأنها استعملت كلمة خليلة باهون استعمال أولاً ، ولانها ارادت التخلص من الخباز ثانياً ، ثم استدارت

نحوي قائلة :

ـ كن حذراً من الآن .. انتبه تماماً يامكسميتش .

كانت نظراتها نحوي ثاقبة فاحصة ، محاولة استنباط أشياء خفية من ذاتي ، ولكني لم افهم من هذه الأشياء شيئاً .

ثم اقتربت مني ، ويداها خلف ظهرها ، وقالت بحنان :

ـ فيم حزنك الشديد هذا ؟

ـ لقد توفيت جدتي من مدة قريبة .

فبان وجهها وقد انبسطت أساريره وأجابتني والبسمة مازالت عالقة على ثغرها :

ـ أمولع بها الى هذا الحد ؟

ـ نعم .. وهل ترغبين امراً آخر ؟

ـ ... كلا .

وغادرت المكان وانا اقرض بعض الشعر في هذا الموقف في تلك الليلة .

« لقد ظهرتِ لي .. »

« ولكن ، لست كما ترغبين »

انقطع الطلاب عن الاجتماع في الغرفة فلم أعد أراهم لاستفسر منهم عن بعض الكتب التي اطالعها ، لذا شرعت بتسجيل الافكار التي من المستحيل عليّ فهمها في مذكراتي . وفي احدى الليالي أطلت في كتابتي الى ان غفوت دون أن اشعر ما كتبت فقرأها الخباز عندما استيقظ صباحاً ، من بين اصابعي ، وافقت على صوته الاجش وهو يقول :

ـ ما هذه السخافات التي تكتبها ؟.

« لماذا لم يطرد غاريبالدي الملك ؟ »

ومن هذا غاريبالدي ؟ ومن يستطيع طرد الملوك ؟

ثم قذف بالكتاب في وجهي ذاهباً الى مكانه قرب النار وهو يعاود كلامه باستهزاء .

ـ طرد الملوك ؟! عجيب امرك يا فتى !.. ان هذه الافكار تحطم لك مستقبلك . منذ خمس وأربعين حولاً كان رجال الامن يقبضون على امثالك وكذلك الآن . إن نيكي فوريج يرقبك ويلحق آثارك .. ولكن أتظن أن الملوك حمام نصطادهم بهذه السهولة ؟..

كان يحدثني بكلمات تنم عن طيبة قلب وحب ولكني وعدت نفسي بألا أحدث أي إنسان عن أمور سياسية خطيرة .

- ٢٠ -

الفكر الثـــائر

تداولت الألسن بأن كتابا ثورياً مثيراً يقرأه الجميـــع ، اذ ينقل من يد الى اخرى ، وقد يتشاجر بعضهم من أجله وطلقت من صديقي «لافروف » البيطار أن يحصل لي على نسخة ولكنه أجاب بيأس :

ـ من المستحيل الحصول عليه يا صديقي .

ثم الحق كلامه فكأنه وجد شذاة أمل :

ـ بامكانك سماعه . إذ سيُلقى في دار أحد اصحابي بين جمع غفير .

في منتصف ليلة عيد صعود العذراء الى السماء وجدت نفسي انقاد في الظلام واتخبط بين دياجيره في شارع « ارسكويه بوليه » يهديني السبيل صديقي «لافروف» واقتربنا من حقل مهجور بعيد المدى وأخذنا في عبوره مخلفين وراءنا المدينة باسرها حتى الأكاديمية اللاهوتية .

وتسلقنا حاجز البستان يواجهنا باب خشبي ، فضرب لافروف النافذة ضربات متعاقبة ، وبعد لحظة امتد منها رأس بلحية وخلفه الظلام والسكون مخيمان ، كأنه ظلام القبور وسكوت الأموات وسأل بصوت خافتٍ راجف .

ـ من الطارق ؟

ـ اصدقاء لياكوف . .

ـ ادخلوا من النافذة .

عبرت النافذة ثم لحق لافروف بي الى ردهة حالكة العتمة ، مليئة بالناس ومع أني لا أراهم فكنت اسمع سعالهم وحديثهم المهموس وفجأة اشتعل في وجهي عود ثقاب وتكلم احدهم :

ـ هل اكتمل الجمع ؟

ـ بلى قد اكتمل . .

ـ اذن اسدلوا الستائر حتى لا ينبثق نور الغرفة الى الشارع .

فسأل احدهم غاضباً :

ـ من أراد ان نجتمع في مكان مهجور كهذا ؟ .

ـ اخفض صوتك يا هذا .

واشعل احدهم مشكاة صغيرة فبانت الغرفة للعيان فارغة من كل اثاث يجلس البعض على الواح خشبية ، والبعض جالسون على الارض ما عدا رجل ذي لحية متراخية . وهو الذي تكلم الآن بانه سوف يقرأ لنا كتاباً عنوانه « فوارقنا » تأليف الكاتب جورجي بليخانوف ، العضو في « نارودنايا فوليا » .

فقال احدهم :

ـ لا حاجة بك الى التفصيل ... اننا نعلم كل ذلك .

شعرت شعوراً ممتعاً من هـذا الموقف ، ربما ولّده الغموض المستحوذ عليّ . هذا الجو الذي يذكرني تماماً بعهود المسيحيين الاولى التي كانت تجري طقوس دينها في كهوف تحت الأرض ، ثم تلاعبت الأصوات والمناقشات من هنا وهناك ، ولكن صوتاً ظاهره بعض السخرية اللاذعة صاح :

ـ هل قررتم نهائياً قراءة الكتاب ؟ ..

فصمت الجميع وبدأ الرجل بقراءته ، كنت ألاحظ ـ حين يشعل احدهم ثقاباً ـ وجوهاً مفكرة وعيوناً تضيق قليلاً لتزيد بحجوظها ومنهم من سئم البقاء لا لشيء انما لطولها . ومع ذلك فالقراءة كانت بمثابة أفكار محفورة في أدمغة ذكية عاقلة .

وفجأة ودون ان يتوقع أحد ، توقف القارىء عن متابعة القراءة ، فدوت في الغرفة صيحات صاخبة :

ـ يا للخائن ! . ضوضاء فارغة ! .. لايهدر دم ابطالنا البررة!

الوجنرف أوليانوف .

وتكلم الشاب بصوت مرتفع :

ـ ايها السادة .. لو كففنا عن لعن الناس واخذنا نتناقش جدياً أما يكون هذا احسن لصالحنا ؟.

أما انا فلا أحب المناقشات ابداً وحتى ابغضها ولم اتمكن من ان اتبوأ يوماً مقعداً بين المتناقشين ولا ارضى لنفسي الجمود امام حركات فكري الثائرة . ولكم كنت احتقر المتناقشين المتعجرفين .. ثم انحنى وقال القارىء لي :

ـ انا « فيدو زييف » . ألست بيشكوف ؟.. يجب ان نتعارف ونتعاون يا صاحبي الآن ولا تهتم بهذه المناقشة لان الضوضاء ستمتد الى اكثر من عدة ساعات فلنخرج الى الحقل ونتسلل بأيّ امر .

لقد سبق لي وسمعت عن هذا الشاب وعن ندوته التي اسسها بساعده ، وانتقى أعضاءها من بين جماعات الشباب ذوي العقول الراجحة والثقافة الحسنة .

كان يجذبني بعينيه العميقتين المفكرتين . وبوجهه الشاحب السوداوي ، وفيما نحن نجتاز الحقل سالني عن حياتي فيما اذا كنت على صلة وثيقة بالعمال ، وعن الكتب التي اقرأها ، وهل لديّ ساعات فراغ ؟ ثم اردف :

ـ لقد سمعت الكثير عن مخبزكم وعلمت انك تفقد جلّ ساعات يومك في اعمال سخيفة . حرام ان تضيعها هدراً هكذا يا أخي .

وظللت بعدها اشهراً ونفسي تردد كلامه باني لن استفيد شيئاً في حياتي القادمة من هذا المخبز . واثناء افتراقنا صافحني بحرارة ، ووجهه محلىً بابتسامة ظريفة ساطعة ، واخبرني بانه على وشك مغادرة المدينة بعد غد وسيستغرق في تجواله ثلاثة اسابيع وانه عندما يعود من سفره سيخبرني أين يلقاني .

انتقلت حياتي من سيىء الى أسوأ مع كرّ الأيام ، وزادت بي حراجة ، اما المخبز فقد تحوّل الى مكان جديد وتحول معه عملي انما بازدياد ملحوظ ، إذ عليّ ، إن أوزع الخبز للبيوت وأبيع الكعك في الأكاديمية ، وفي مدرسة البنات الراقيات . وهناك كن يرمين لي بعض الرسائل في سلتي وهن يخرجن الخبز ، فأرى عند المساء الرسائل وأدهش من هاته الكلمات القبيحة التي يستعملنها .

كان هذا العمل يحضني على أن أبحث بين الفتيات الجميلات ، وهنّ يتغامزن حول السلة بأعينهن الساحرات لأعرف من منهن تلك التي تضع لي هذه الرسائل الوقحة كل يوم والتي لا تفهم معناها ، وانا واثق من ذلك ، فانساءل عما اذا كان خبر المواخير قد استرسل ووصل الى هذه المدارس .

وفيما كنت عابراً ذات يوم الممر المؤدي الى باحة المدرسة همست بأذني فتاة سمراء نضيرة ، ذات شعر اسود ملقى على كتفيها :

— اذا أوصلت لي هذه الرسالة فاني أعطيك «كوبيك» .

كانت عيناها السوداوان تفيضان بدموع حارة وتعض على شفتيها بخجل ، وانقلب وجهها وأذناها الى جمر متقد ، فرفضت

المال منها بإباء .

واوصلت الرسالة الى الطالب ، إنه طويل القامة ، ابن احد رجال القضاء الممتازين. وحين استلمها مني اخرج إلي خمسين كوبك عاداً اياها ببطء وسكون ، وعندما اخبرته باني لا اريد اجراً سارع الى المال ووضعه في جيبه ، فرحاً راجفاً ، حتى ان المال باجمعه قد سقط على الارض وراح بين جنبات الغرفة فرفع وجهه إلي بتنهدة عميقة وقال بنزق :

— وماذا بعد ؟ اريد ان افكر .. ألا تذهب ؟

وحاولت ان اقابل الفتاة ، فلم اتمكن ، وعندما ذهبت الى بلاد القرم وجدتها وقد اصبحت معلمة فيهـــا ، لقد كانت مسلولة هزيلة لذا فقد حدثتني عن الحياة بمرارة محرقة ، لكأن الحياة أذنبت معها ... وفعلاً أذنبت .

وعندما انهي تسليم الخبز وبيعه قبل الظهر ، كنت انام ساعات طويلة وفي المساء اخبز الحلوى لبيعها في الحانوت بعد منتصف الليل لأننا بقرب مسرح المدينة ويتهافت الناس والممثلون على شرائها عقب التمثيل ، ثم اعود الى المخبز واجهز المعجن واضع فيه الطحين لأعجنه في اليوم التالي. ولم يكن شغلي إلا عمـــل شاب مفتول الساعدين إذ أعجن كل صباح خمسة عشر او عشرين رطلاً .

ثم استلقي على الارض متعباً لأغفو بضع ساعات ولأستيقظ من جديد وأوصل الكعك لاصحابه ...

وهكذا دواليك ... تسير بي الحياة مترادفة متتالية لا تغيير فيها ابداً ، وباندفاعي الكلي في عملي ، كنت افكر في ميول عالية

وأشياء غامضة كالحكمة والحق ، والخلود . اصبحت اجتماعيـــاً بطبيعتي وانبرى لساني يتكلم في كل مناقشة او خطاب ، وشرع خيالي يتوهج بالتراجم والكتب . كان باستطاعتي ان اجعل أبسط حادثة قصة جميلة تدور حوادثها حول اقوال الشرطي وخيطه غير المرئي .

- ٢١ -

الملحـــد !

أمسى اخيراً لي بعض الاصحاب في مصانع « كريستوفينكوف وآلافوزوف » وبخاصة عامل نسيـج كبـــير السن يدعى «نيكيتا روبتوف » كان ماهراً في عمله ، وروحه حية طلقة ، وقد اشتغل في اكثر مصانع روسيا ويقول :

ـ لقد تخطيت هذه البسيطة سبعة وخمسين عاماً يا اليكسي الحبيب . .

كان يحدثني بكلمات ظريفة جداً ، بصوته الرخيم الجميل وتحلي وجهه بسمة ليست اكثر جمالاً من عينيه الرماديتين المتورمتين ، خلف نظارتين سوداوين ، مشتبكة باسلاك نحاسيـــة ، قد علقها الصدأ بنقاط خضراء .

ومن بين اصحابه « دوبتوف » الذي يُدعى بالالماني لانه يحلق ذقنه تاركاً بضع شعيرات متدلية من عثنونه ومتصلة بشاربيـه المتصلبين . كان ذا صدر عريض ، مرحاً محبوباً ، معتدل القامة

على اناقة ، ويهز رأسه الاصلع حين يتكلم ويقول :

- انني احب السيرك . كيف يستطيعون تدريب هـــذه الخيول!.. مع انها حيوانات بهيمة ، وتجبرني على ان اقدرها فأفكر في نفسي .. يجب ان يضعوا أسساً ثانية لتعليم هؤلاء البشر ، انهم يعلّمون الحيوانات بقطعة من الحلوى ، اما نحن فبامكاننا شراء الحلوى من السمان ، لذا على المدرب ان يأتينا بحلوى روحية غير هذه الحلوى يمكن ان تسمى الرأفة . وحتى نربح معركة الحياة علينا ان نستعمل الرأفة مع الآخرين . وليس من المستحسن استعمال العصا كما يحدث في عالمنا الحاضر .. ألا ترى معي بصحة قولي يا شاب ؟ ..

ومع ذلك فهو نفسة لم يعالج الامور بالرحمة التي ينشدهـــا ! وعندما يناقش احداً يجيبه بسخرية لاذعة وكلمات ان توفقت في صيغ عنوان لها فليس اجمل من «الشتائم». قابلته لاول مرة في حانة صغيرة وقد قارب الناس ان يهاجموه حتى انه لطم لكمة او لكمتين فاسرعت لانقاذه من الحانة ، وهكذا اصبحنا صديقين ، وسألته حين كنا نعبر الظلام بوابل من مطر الخريف :

- هل أوذيت كثيراً ؟

فاجاب بشيء من الاحتقار :

- انا ! لا يدري احد عاقبة ذلك .

كانت هذه المصادفة اول تعارفنا وحاول ان يهزأ بي مرات ولكني اخذت اصف له ذلك الخيط الذي يدور بحياتنا فهتف بجد :

- لا ، لقـــد اخطأتك ، لستَ باحمق ابداً .. و ان رأيك

صائب تماماً ..

ومنها تغير اتجاهه نحوي الى عطف ابوي رؤوف حـــتى انه يدعوني باسمي الـكامل :

ـ يا طيري البديع ، يا اليكسي العزيز ، يا مكسميتش انهـا لأفـكار حقيقية ، ولكن تأكد بانك لن تحصل على شريك لك يقبل افـكارك .. لذا فهي لا تثمر .

ـ ألا تؤمن بها انت ؟

ـ انا ؟ ! أأعتقد بافـكارك ، وانا صاحب افـكار ؟ ! ان كل الناس ما هم الا كلاب أليفة السفيه ، ويزعجهم وجود الذباب تحت اذيالهم ، وقد علق بي ... زوجات ، اولاد ، مطالب ورذائل .. وأمور كثيرة اخرى .. وكل كاب من هذه الكلاب يعبد مأواه ولا يتركه ، لقد سبق واحيينا مثل هذه الافـكار في مصنع «موروزوف» ولكن الذين قادوا الحركة بأجمعهم وقعت رؤوسهم. وان رأسك ـ بهذه الافـكار ـ لجدير بان يقع ، واذا خسرت فستبقى ذكرى الصدمة عالقة بمخيلتك .

وفجأة تغيرت حياته وركنت الى الهدوء حـين تعرف على « ياكوف شابوشنيكوف » العامل في مصنع « كريستوفيزلوف ». كان هذا مسلولاً ، ماهراً في عزفه على القيثار ، يسحر الالباب بها ، ولكن « روبتشوف » دهش حين انكر صاحبه الأله وكان ياكوف يناقش بحدة ، وعقيدة متينة ، وبين آن وآخر يبصق بقعاً من دمه ، المليئة بانسجة الرئة الميتة ، وكان يقول ـ وما اكثر وأبعد خطأه :

اولاً : اني لم اخلق على صورة الله ، ولا اشابهه ابداً ، اما حكمة الانسان فانا جاهل عن كل امر ، وأما القوة فاني لا استطيع الحراك ، او الطيبة فاني ادرى بخبث طويتي . وثانياً : اما ان الله يجهل قساوة الحياة عليّ او انه يعرف كل شيء ، وما بحيلته اي شيء او انه يستطيع ان يساعدني ، ولكنه يترفع عن ذلك. وثالثاً : ليس الله مصدر الحكمة ولا مصدر الرحمة انه وبكل بساطة غير موجود ! . ان حياتنا وحيدة ومندفعة ولا يستطيع انسان ان يستسخف عقلي ويقنعني عكس ما افكر به ! ! .

من عادته ان يتحمس في بدء كلامه ثم يعود ليغضب وليصبح بانفعال شديد وكذلك حصل ، فأخذ بالشتم والسباب وحاول ياكوف إسكاته فلم يتمكن الا ببعض آيات من التوراة ، وشفاهه ترتجف بهلع مرعب ويكشر عن انياب كأنياب الذئب وهو يحملق برفيقه بنظرة تذكرني بمريض العظمة .

وعندما يتركنا ياكوف ، يعجب روبتوف منه إذ يقول لي بحدة :

ـ لم يحدثني احد عن نكران الله بمثل هذه الوقاحة ! حقاً سمعت شيئاً عن الالحاد والزندقة ، ولكن ليس بهذه الحدة . تذكر قولي ، لن يعيش طويلاً من الحاده المفرط وسترى عاقبة نكرانه هذا .

ولكنه تعلق بياكوف تعلقاً زائداً لبعده عن هذه الفكرة وشغف بحديث الطالب المسلول ، وبعادته حتى انه حين يتكلم يصبح ثائراً ويقول له :

ـ لقد انتهت قضية الشرك بالله ، وابدأ بالتكلم عن القيصر . بامكاني أن أتحدث عن مثالبه الكثيرة بلا خوف ولا وجـــل . . ليست المتاعب من القياصرة انما مصدرها ارباب العمل ، فأنا مستعد للعيش تحت سلطة اي قيصر وأستطيع أن اقول « ابق على عرشك يا قيصر ، واحكم اذا أسعدك الحكم شريطة أن تحاسبني مع صاحب عملي بحق فان فعلت فاني سأحيط عرشك بسلاسل من ذهب وأكاد أعبدك ايضاً .

وبعد قراءته كتابي « الملك جوع » كان يقول معجباً :

ـ ان قول الكاتب حق يا أليكسي . . قدّم تحيـــاتي للذين كتبوه لك .

يحب روبتوف أن يطلع على كل أمر ، وهو فضولي لاقصى الحدود ، لذا فانه كان يتتبع خيط شاكوشنيكوف من الالسن ومن خطواته ، وحين يجلس امامي واحدثه عن الكتب والكتاب يسرّ كثيراً ويقهقه بصوت عال ويقول :

ـ اعظم شيء هو عقل الانسان ، ذلك العقل الماهر .

كانت افكاره الغنية تدهشني حقاً ، ثم يستدير نحوي ليكلمني وهو ينظر بعينه المتعبتين :

ـ يوجد في بلاد الالمان نجار فريد البديـــعة ، ليّن الذكاء ، يستشيره الملك دوماً في اصعب اموره . وحين استفسرت منه عن اسم ذلك النجار فهمت من انه يعني « بابل » فعجبت وسألته عن معرفته به فأجاب :

ـ اعلم كل شيء يا صاحبي نعم . . اعلم .

لم تكن الحياة لتهمّ شاكوشنيكوف ، ولم يفكر في ان يعبر قلاقلها ، انما همه إعاده التفكير بالاله وإعجاز رجال الدين ويبدي دوماً غضبه من الرهبان وسأله روبتوف يوماً :

ـ لماذا يا ياكوف تصب جام غضبك على الله وليس على غيره؟

فيجيب بصوته الصاخب المتفجر :

ـ وأي شيء حال دون السير بي في الحياة غيره؟ منذ عشرين عاماً كنت أرمن به ايماناً صادقاً . عشت فيها في خشوع ورهبة منه وأتحمل كل سلطة تقذف بي لأني اتـــذكر الآية التي تقول « كل سلطة تأتي من الله » . قضيت كل حياتي معللا بالخوف ، وصدف ان قررت قراءة التوراة بعناية فرأيت كل شيء فيها مختلفاً يا نيكيتا .

كان يواصل كلامه وهو ، وأنا شاكٌّ في صدق تعبيره :

ـ وها أنذا أموت قبل أن يحين حولي وكل ذلـــك بسبب ايماني هنا .

ـ ٢٢ ـ

الهوى البائس

كثرت معارفي وتعدد اصحابي وأصبحت مجبراً لان أضع الأوقات المعينة لزيارتهم ، وحين أذهب لزيارة اصدقائي الطلاب ، يسرون بي ، ويهتمون لاحاديثي الجديدة ويصغون اليها .

اما روبتوف الذي يعيش في حي الأميرالية ، وشابوشنيكوف

في حي التتار، فالمسافة بعيدة بيننا لذا استحالت علي زيارتها. وكنت لا أملك غرفة استقبل بها أصحابي والسبب الأهم هو الخباز الجديد – جندي متقاعد – فهو صديق لرجال الشرطة ، وباحتنا مطلة على باحة رئاسة الدرك كذلك ، ومن آن لآخر يتسلق الجنود الحاجز الفاصل بيننا ليشتروا خبزاً ممتازاً للعقيد « كانكارو » وخبزاً أسمر لأنفسهم ، أضف الى كل هذه الامور بأني أخبرت بالآ تمـــادى بأقوالي لنتجنب الشبهات على مخبزنا .

ليست حياتي في تلك الآونة بجيدة ، انما هي خاسرة من اي وجهة اقصدها ، وكذلك أصحاب المخبز ، إذ أنهم يأخذون المال من علبة النقود دون ان يحسبوا لاثمان الطحين حساباً ، ويقول لي اندريه دوماً :

– اني على وشك الافلاس .

كانت حيـاته الصعبة تشابه حياتي ، إذ تتطلـع اليه « ناستيا » كتطلعها إلى العالم الذي لا يثق بأحد ، وتمر من جانبه ، وكأنها لا تعرفه ، متابعة مهامّها. فينظر اليها ويتنهد بحسرة عميقة مكبوتة وحين يراني يشتكي لي من معاملتهـا القاسية هـذه ، ومن اصحابه الاعداء .

– لم اعد اثق بنفسي يا أخي . إذ اني اشتريت البارحة ستـة جرابات ، ولم يمض اليوم حتى سرقت جميعها .

قصته مضحكة ، ومع ذلك فاني لم أضحك ، اذ انى افكـر بهذا الانسان الفاضل النقي من كل انانية والذي يناضـل في خضم الحياة كي يصل الى مبتغاه ، ولكن اصحابه يهدمون ما يبنيه .

لم ينتظر دورينكوف من الذين يخدمهم امتنانا، انما من انفسنا علينا أن نشكره خالص الشكر على هذه النفس الطموحة. لقد بدأت عائلته تتمزق إرْباً إرْباً .. فالاب اخذت قواه تنحط ، وتغلظ عصبيته التي تتمركز بأموره الدينية ، والاخ الاصغر انغمس في بيوتات الفحش بين الثدي والكأس ، وأضحت الاخت كأنها في غرام بائس، وكثيراً ما رأيت عينيها وقد تورمتـــا من البكاء . وكنت أظن أني احب ماريا وبنفس الوقت أهوى زميلتهـا التي تشاركها العمل في الحانوت واسمها « ناديشتا شاربانوفـا » . وهي ذات خدين أحمرين وشفتين جذابتين ، وعلى ثغرها ابتسامة خالدة جعلتني أعشقها .

من جراء الكبت الشديد الذي اكتنفني ، أحسست بضرورة ماسة لرفقة امرأة . إذ اصبحت الآن بحـاجة الى عطف أنثوي أو على الاقل الى صداقة امرأة صادقة. كنت بحاجة الى شخص اتحدث اليه عن نفسي دون أي حاجز او مانع ، ليساعـــدني على ترتيب أفكاري والانطباعات الجامحة التي كانت تعـتريني ، ولم يكن لي صديق حميم أخلص له .

لم اكن مندفعاً نحـــو الاشخاص الذين يرون بانني لست إلا مادة بسيطة يجب تهذيبها وصقلها ، وكذلك لم يشجعوني على الاقـدام اليهم ، واذا حاولوا ان يكلموني كنت احاول جاداً محادثتهم عن مصالحهم التي تهمهم فقط .

- ٢٣ -

عدو حميم

اخبرني « نيكي فوريج » بان كوري بليتموف سيمر مخفوراً من هنا الى السجن في « سان بطرس برج » . وحين مَر رفع يده وحياني دون ان يعلّق لسانه بكلمة وفجأة وقف تجاهي وقال بصوت جهوري ثابت :

ـ لقد اوقف الليلة السابقة « كوري أليكساندروفيتش » .

ثم اخذ يتطلع اليّ بعينين صارمتين بيأس ، وأضاف قائلاً بصوت منخفض :

ـ مسكين هذا الصبي التعس ، لقد عطّلت حياته .

وأخذت دمعاته تتوجرج في ذيل عينيه لتحاول الانفلات من مكانها ، وقد حذرني منذ مدة بان ابتعد عنه ، وكان قد طلب مني أن احذر « رابتوف » ايضـــاً الذي كان مولعاً به كما كان مولعاً بي .

وسألني نيكي فوريج :

ـ لماذا انقطعت عن زيارتي ؟

فذهبت اليه في نفس المساء ؛ كان جالساً على سريره ، وزوجته تخيط له سرواله وقال :

ـ ايه . . لقد وقع هذا ، وجدوا عنده مقلاة فيهـــا حبر وهدفه طبع نشرات ضد القيصر لذا فقد اخذوه .

وبصق على الارض وقال لزوجته بجفاء :

ـ ناولني السروال . .

فأجابته دون ان ترفع وجهها :

ـ انتظر لحظة .

ثم وجه كلامه نحوي :

ـ انها حزينة على ما اصاب الطالب وبكت طوال النهار ، وانا حزين ايضاً على هذا العمل ، ولكن بالحقيقة يا اخي هل بامكان طالب ايقاف سلطة القيصر ؟

وعندما ارتدى سرواله قال لي :

ـ لن انأخر ، سأعود بعد برهة . . . وانت أشعلي المدفأة .

وظلت زوجته دون حراك ، وحين اغلق نيكي الباب وراءه التفتت اليه ورفعت قبضتها مهددة مدمدمة وهي تقول :

ـ بخ بخ ايها الشيطان .

كان وجهها مشوهاً لكثرة سيل الدموع عليـــه ، ونهضت متثاقلة الى المدفأة واقتربت منها وهي تقول :

ـ سأخدعه حتى أجعله يعوي كذئاب الليل الجائعة . . . لا تصدقه ايها الشاب ولا تصدق اية كلمة يتفوه بها ، وقصده من كل هذا او ذاك ـ هدف حياته ـ اصطياد الرجال ، وانتبه منه انـه يعرف كل شيء عنك .

ثم اقتربت مني وكادت تلاصقني ، او تصطدم انفاسنا بعضهـا ببعض هامسة بي كأنها تطلب صدقة :

ـ وانت . . ألن تكون ظريفاً معي ؟

مع اني لم احب هذه المرأة الا اني هصرتهـــا بين ذراعي ،

ولاعبت شعرها الخشن لان عينيها مدموغة بألم دفين وسألتها :

ـ ومن يلاحق الآن ؟

ـ شخص يسكن عنه « ريبنوريادسكايا »

ـ وما اسمه ؟

فابتسمت قائلة :

ـ افرض اني اخبرتك عن كل ما تسألني . . ها هو آت ابتعد . . انه هو الذي لاحق كوري المسكين .

ثم تركتني وتشاغلت في تنظيم المدفأة ، فـــدخل نيكي وهو حـــامل بعض الخبز والمربى والفودكا . ثم جلسنا نشرب الشاي وزوجته مارينا الى جانبي وهي تخدمني بكثير من مظاهر الصداقة وكانت تتطلع اليّ مداعبة وجهي بعينها السليمة الواحـدة ، بينما زوجها اخذ يلقي عليّ دروساً :

ـ انه بين الافئدة حتى في عظامهم . . . ذلك الخيط الخفي . حاول ان تمزقه او ان تقتلعه .

ـ ان القيصر بالنسبة الى الشعب ، يتساوى مع الله .

وفجأة كان يسألني :

ـ انك تعرف الكثير من الكتب . . ألم تقرأ الاناجيـــل الاربعة ؟ . وما تقول فيها ؟ . . أكل شيء فيها صحيح ؟

ـ لا أعلم .

ـ اعتقد ان هناك اشياء كثيرة عديمة النفع فيها فمثلاً « طوبى للمساكين » أي شيء مبارك فيها ؟ . اما المساكين فالدنيا ملأى بهم ، منهم الفقير ومنهم الذي اصبح فقيراً بعد غنى ، فالاول اي

سعادة نالهـــا والثاني اتاه الفقر من سوء حظه . ألست محقاً في قولي ؟.. اظن اني مصيب ..

ـ ولماذا ؟..

مضت برهة وتطلع إلى وجهي فاحصاً إياي ، ثم أردف كلامه بوضوح واتزان :

ـ في الأناجيل إعانة وشفقة لكل فقير ،واعتقد ان الرحمة عمل مضر ، .. الرأفة او الشفقة تعني صرف مبالغ زائدة على أشخاص عديمي النفع يعيشون في ملاجىء الفقر أو في مستشفيات الأعصاب او في السجون ، علينا أن نساعد الشعب القوي ليقوى ، والغني كي لا يضيع غناه ... ولكن هل من يسمع ؟ .. كلنا نساعد الفقير كأن باستطاعتنا أن نجعل من الضعيف قوياً ومن الفقير غنياً ، ثم تعود المصيبة أدهى ، إذ تضعف قوى الاقوياء ليستخدمهم الفقراء.

لقد تطورت الحياة وابتعدنا عن دنيا الأناجيل منذ زمن ، وتتبعنا طريقاً صائباً . خذ مثلاً قضية بليتموف لماذا سجن ؟.. سجن من جراء الرأفة بالناس . إننا نعطي الحسنات للفقراء ولا نفكر بالطلاب وندعهم يحيون على اكتافنـــا .. أين المنطق في كل هذا ؟ .

كانت هذه الافكار صادقة صريحة ، وهي الوحيدة المنتشرة والراسخة بين الشعوب ولكن كلام الشرطي كان قوياً صادقاً تماماً حتى انني قد قرأت بعد سبعة اعوام من ذلك الموقف فلسفة نيتشه فكانت تشابه تماماً فلسفة الشرطي ،وقد يجد المرء في حياته افكاراً قوية حقيقية لا يصادفها في أثمن الكتب .

واخذ صياد الرجال يواصل كلامه ، وهو يطرق على حافة الطبق طرقات رتيبة ، بوجهه المكفهر ، دون ان ينظر إليّ . وذكرته زوجته بأن عليه أن يخرج إلى وظيفته ولكنه لم يجبها ، إذ انه غارق في بحر كلامه ، وبلحظة انهى حديثه ليخوض في بحرٍ آخر :

ـ لستَ بالغبيّ ، ولا الأمي .. أينا سبك العمل في المخبز؟.. بامكانك ان تجمع نفس المال إن لم اقل اكثر بقيامك بأي عمل... في خدمة امبراطورية القيصر مثلاً..

كان عقلي مبلبلاً مشغولاً ، وانا اصغي الى حديثه ، اذ كنت افكر كيف يجب ان أحذر الاشخاص الذين يعيشون في « ريبنوريادسكايا » من هذا الشرطي اللعين الذي يتتبع اخبارهم. ثم عاد نيكي فوريج إلى كلامه :

ـ ان النابهين من الشباب وذوي العقول النيّرة يجب ان يتجمعوا حول قيصرهم كتجمع النحل في خلاياه حول الملكة ، او كالزنابير حول اعشاشها .

ثمّ قالت المرأة بصوت اللائم :

ـ انظر الى الساعة انها التاسعة تماماً .

ـ يا للشيطان !

ولبس نيكي فوريج سترته بسرعة وقال :

ـ سألحق وظيفتي بعربة ، الى اللقاء ايها الشاب اريد ان اراك على الدوام في داري .

وعندما غادرت داره قررت في نفسي بألاّ ازوره ثانية

مع ان حديثه مغرٍ ولكني كنت اشمئز منه ، وقد ازعجني تماماً حين قال بأن الشر يأتي من الرأفـــة ، وبقيت هذه الكلمات في حوزتي ، ولن انساها ابداً ، وليست مناقشة امثـــال هذه الاحاديث بنادرة ، انما تعددت الندوات بسببهـــا ، وهي التي اقلقت توازن تفكيري بشكل خاص .

- ٢٤ -

الحب عماد الحياة

هبط المدينة رجل عبقري ، من مبادىء العـــالم تولستوي ، وكان يحمل لوناً من التفكير جديداً عليّ ، قامته طويلة وعظامه خشنة ذو لحية سوداء تشبه لحيـة التيس ، وشفتاه متدليتان مشققتان ، كأنهما شفتا زنجي ، احدب قليلاً ، يبدو للناظر انـه يبحث عن شيء فقده في الارض ، ولكنه فجأة يقذف برأسه الى الخلف فتبدو عيناه بتأجج ملتهب ، وتخترق ما في طريقها لتصل الى ما في داخل النفس من خبايا ، والكراهية الباحثة عن الحقد تلمع بنظرته .

كانت المناقشات تدور في بيت احد أساتذه الجامعة ويحضرها لفيف من المثقفين والشباب وأخصهم بالذكر قسيس اهيف القامة - استاذ في اللاهوت - يظهر شحوب وجهـــه ، بالرداء الاسود الذي يلبسه ، يبتسم وجهـه ابتسامة باردة تشاركها عينان رماديتان باردتان .

كان يتحدث عن الحقائق الموجودة داخل الاناجيل وعن ازليتها ، بجمل قصيرة ومقطعة ، ولكنها ترن بقوة وتشير الى اعتقاد خالص . ويحرك يمناه حين يتكلم بينما يسراه تبقى جامدة في جيبه ، ويتكلم اثنان بهمس في احدى الزوايا :

— انه ممثل .

— .. نعم . ويحسن دوره تماماً .

لقد قرأت كتاباً عن نضال المذهب الكاثوليكي ضد العلم ، واعتقد انه تأليف « درابر » وهذا الرجل يبدو وكأنه يشابههم ، وتفكيره نحو الحب كالايمان الاعمى الذي من اجله يحصل التقتيل والحرب .

كان يرتدي قميصاً ابيض ذا اكمام عريضة طويلة ، وفوق القميص سترة رمادية ويتميز بهذه الالبسة عن الجماعة لغرابتها وكان ينهي خطبته قائلاً :

— هذا ما اسألكم عليه . هل أنتم ممن يتبعون المسيح ام ممن يتبعون داروين . ؟

يقذف هذا السؤال من فمه كأنه الحجر ، قد ضرب به الشباب المستمعين ، فكنت تقرأ في أعينهم ، رجالاً ونساء ، الخوف منه والانجذاب اليه وترى الرؤوس منحنية مفكرة دون أن يجاوبوه .

— إن الفريسيين « الخبثاء » وحدهم يستطيعون محاولة دمج المبدأين معاً ، ويكذبون على أنفسهم بدون حياء كذلك ، فيضلون الآخرين .

فانبرى معارضاً اياه ، وتقدم قليلاً وهو يرفع جلبابه قليلاً ،

وابتسم ابتسامة المتواضع عن اقواله كأنها الماء السلسل الجاري ولكنها محشوة بالثورة وقال :

ـ على ما يظهر انك تشاطر الرأي العام الخاطىء فيما يتعلق بالفريسيين وتأكد انك مخطىء تمام الخطأ في تفكيرك .

وواصل القسيس مناقشته على ان الفريسيين ينظر اليهم كحراس التشريع اليهودي المخلصين وان الشعب قد اتبعهم في تعاليمهم ثم قال له :

ـ اقرأ مؤلفات « فلافيوس جوزيفوس » مثلاً .

عندما سمع الرجل هذه الكلمة قفز من مكانه واجابه مستنكراً:

ـ جوزيفوس ؟ .

ـ ان الشعب يتبع اعداءه في تعاليمه ، ويقويه العدو ضد صديقه وليست ارادة الشعوب بيدهـــا ، انما هي انسياق مع التيار وأبعد جوزيفوس عني ! .. انه مؤرخ خاطيء .

انه يتكلم والمناقشون الآخرون يقسمون القضية مثنى وثلاث ورباع في ظنونهم الى ان قارب الحديث ان يتلاشى ، والرجل بقي متمسكاً برأيه والشرر يتطاير من عينيه كراهية ، ثم قال :

ـ الحقيقة ان الحب هو مرجع كل امر .

من هذه المناقشات استفدت كثيراً، واحسست ان الارض تميد من تحتي وعدت اعاود التفكير عن نفسي فأراها أسخف مما ظننت . وبعد ان مسح الرجل عرقه المتصبب على وجنتيه ، عاد الى قوله:

ـ ارفعوا الأناجيل جانباً .. انسوا الأناجيل وبعدهـا لن تكذبوا ابداً ، اصلبوا المسيح ثانية فهذا اوفق لكم .

كانت اقواله تنصب امام مسامعنا كالجدار الابيض العريض ، لا ارى فيه منفذاً ، فتساءلت في نفسي كيف ذلك ؟ ان الحياة نضال مستمر من اجل السعادة ، إذن فالحب والرأفـــة قد خالفا عقيدته ، واثبتا لي ان الحياة بالصراع . وعلمت اخيراً اين يسكن وان اسمه « كلوبسكي » فذهبت لزيارته في الليلة الثانية ، فرأيته في الحديقـــة الى جانب صاحبتي الدار ، جالساً قرب طاولة تحت شجرة ظليلة ، فامتثل لي بثوبه الابيض وقميصه المفتوح ليظهر صدره الاسمر الغزير الشعر .

وكان منظره يتلاءم مع تفكيري بالرسول الذي لا مأوى له ، ذلك المبشر بالحقيقـة وهو يأكل التوت والحليب بملعقة فضية ، من اناء امامه ، بمتعة ظاهرة ، وهو يتلمظ بشفتيه المسترخيتين وفي كل آونة كان يمتص من شاربيه ما علق من ذرات الحليب يشابه في ذلك شارب القط وقتما يلعق حليبه .

جلست احدى الاختين الى جانب الطاولة متأهبة لخدمته بينما الثانية قد اتكأت على جذع الشجرة ، عاقدة ذراعيها الى صدرها ، وسبحت عيناها بحلم حالم بين طيات السماء الحارة . كانت ثيابهما متشابهة يغلب عليها اللون الليلكي ، وكل واحدة منهما طبق الاصل عن أختها ، ومن الصعب على الانسان ان يعرف ايهما يريد من اول وهلة !

وحدثني عن قوة الحب الخلاّقة بلطف وايناس ، وكيف يستطيع المرء ان ينمي حباً من قلبه لانه القوة الوحيدة – على ما اعتقد – التي تربط ارواح العالم بعضها ببعض . وكان يقول :

– هذا هو الرباط المقدس الذي يمكن ان يربط الانسان بأخيه

الانسان ، الحياة بلا حب فارغة المعنى ، واولئك الذين يعتقدون ان سر الحياة انما هو بالنضال ما هم إلا أرواح عمياء بصراً وبصيرة. ان النار لا تطفأ بالنار ، والشر لا يقوى على الشر .

ثم عبرت البنتان الحديقة الى البيت ، ممسكة كل واحدة بخصر اختها ، فنظر الرجل اليهما ، وكأنه مصور غارق في تصويره ، وسألني :

— من انت ؟ . .

وعندما اخبرته عن واقعي وحياتي ، عاد الى كلامه وهو يوقع لحناً على الطاولة بأنامله . . كيف يصبح الانسان انساناً كاملاً ، وكيف يجب عليه ألاّ يغير هدفه في الحياة ، وكيف عليه ان ينظم روحاً متعلقة بالحب الانساني :

— كلما كان الانسان من طبقة متواضعة ، ازداد تقرباً من الحياة ، ومن حكمتها القدسية .

لم أعارضه ابداً رغم اني كنت ألمّ بهذه الحكمة القدسية إلماماً كافياً . وقد حاول ان يظهر الملل من جلستي فرماني بنظرة ثاقبة ناعسة وتثاءب ، ثم وضع كفيه خلف رقبته ، ومد ساقيه الى الامام ، وأسبل جفنيه متظاهراً بالتعب كأنه نصف نائم ، وتابع جملته الاخيرة :

— اطاعة الحب هي ناموس الحياة .

وفجأة قذف بيديه جانباً كأنه يقبض طيراً في الهواء ، وحملق بي وقال :

— ما هذا ؟ اعذرني ، اني اشعر بكآل مضن .

وأطبق جفنيه من جديد ، و كشّر عن أنيابه كأنه متألم ، فتدلت شفته السفلى ، بينما انقبضت العليا ، فبان شارباه كأنهما قنفذة قد علقت جانباً من وجهه . فتركته عائداً الى المخبز ، وأنا اشعر بالكراهية البغيضة نحوه ، وشاكّ بصدقه . وقد طلب مني استاذ في الجامعة ، وهو سكير عازب ان احضر له كعكاً كل صباح ، فقابلته هناك .

كان وجهه متنفخاً ، وجفونه حمراء كأنه لم ينم بعد ، وكان ثملًا ايضاً و كذلك الاستاذ الذي جلس بثيابه الداخلية على ارض الغرفة ، وهو ممسك بسيجار في يده ، والأثاث مبعثر والثيـــاب ملقاة بين زجاجات الجعـــة الفارغة ، تراه وهو يهتز يمنة ويسرة ويقول :

ـ الـ . . . رحمة .

فيجيبه كلوبسكي بحدة وغضب :

ـ ليس هناك رحمة . سنطيع الحب او نُسحق من اجله . وعلى الحالتين نحن مقهورون امام الحب .

وأمسك بي من كتفي وقادني الى الاستاذ وقال له :

ـ أنظر اليه ، اسأله ماذا يريد ، اسأله ، أيحب الانسانية ؟

فرفع المعلم عينين مخضلتين بالدموع ، وان كانتا تضحكان وأجابني :

ـ اني مدين لهذا ببعض المال . . انه يعمل في المخبز .

ثم أخذ يفتش عن شيء في جيبه الى ان وجده ، واخـــرج مفتاح داره وقدمه لي قائلًا :

ـ خذ ما يحلو لك من داري .

ولكن الرجل العبقري اخذ المفتاح من يـــدي واشار اليّ باحتقار طارداً إياي :

ـ اخرج من هنـــا حالاً ... ستحصل على ما لك في مرة اخـرى .

وقذف بالأرغفة التي أخذها مني على احدى الارائك دون ان يعرفني ، وكم سررت من جهله بي . وعدت الى عملي ، وحديثه الماضي عن الحب يقتضب ويطول في ذاكرتي ، وقلبي يحتقـــره ابشع احتقار .

وبعد مدة سمعت حدثاً جللاً ، ذلك أنه افشى سر حبـــه للاختين ، ولكل واحدة على حدة ـ صاحبتا الدار المضاف فيها ـ وعندما أسرعت احداهما نحو شقيقتها لتبشرها بخطبتها من ذلـك الضيف ، صعقتا من هول الصدمة ... كيف حوّل سعادتها الى مرارة وجفوة وبغض . فأرسلا الخـــادم بالتو ليطـرده من غرفته ، ولكنه اختفى ، ليس فقط من ضيافتها ، انما من كل المدينـة

إن قضية الحب والرأفة ، ومكانتهما في حياة الانسان ـ وهما قضيتان صعبتا الحل ، قد طرأتا على تفكيري ، وانا في سني الفتي ، شعوراً غريباً ، مفكك الانسجام الداخلي . وبعد ان امعنت في تفكيري عدت الى سؤال بسيط وهو .. ما معنى الحب بشكله الكامل ؟

جلّ ما قرأت كان مشبعاً بالتعاليم المسيحية والأفـــكار

وظيفة زوج دونكا هي ان يخبر سيده عما فعل فلان ، وماذا قال الآخر ، ذلك الحسيس النفس والناعم الملمس ، وكان المفضل عند ميدنيكوف من عماله ، وقد قال صدقاً عن هذا النوع من البشر .

هؤلاء الناعمو الملمس يعيشون على اكتـــاف الآخرين ، كالاعشاب المتسلقة على صخور متماسكة ، فتضعف شدتها ، وتصبح ضعيفة الممسك وكذلك هم . وعندما ألاحـــظ اني عشت في نعومتهم ، أشعر كأنني حصان محاط بسرب من الذباب العالق به .

كانت تتقاذفني هذه الافكار نفسها عندما غادرت بيت الشرطي في منتصف الليل حين كان الهواء يتلاعب في الشوارع فتتأرجـح المصابيح وتقتم السماء ، وما لبثت ان هطلت امطار تشرين الاول .

أحسست ان روحي إنما تتناقص عن نفسي كل لحظة تناقصاً بيناً ، ليس فقط بالكلام او الفعل أو الشعور السيء ، إنما كنت مجذوباً من صميم روحي نحو النساء والكتب ، نحو العمال والطلاب ولكني لم أجد فسحة من الوقت أشبع فيها هذه الرغبات او رغبة واحدة على الاقل ، إذ أني ادور بلا وعي ودون ربح بضربات من أكف خفيفة .

- ٢٤ -
رجل عظيم

ذهبت لزيارة « ياكوف شابوشنيكوف » في المستشفى عندما علمت أنه نُقل اليه . ولم أدخل حتى قابلت امرأة سمينـــة الجسم

تلفّ شعرها بمنديل أبيض تظهر منه أذنان حمراوان كبيرتان، فأخبرتني دون اي اكتراث :

ـ لقد مات .

فسمّرتُ في مكاني صامتاً حزيناً ، سادّاً عليها طريقها ، فاغتاظت كثيراً وقالت :

ـ وماذا تريد بعد ذلك ؟

فنظرت اليها نظرة شزراء حقودة وقلت :

ـ يا لك من حمقاء لدودة !

ـ نيقولاي .. اطرد هذا الشاب من هنا .

كان هذا منهمكاً في تلميع بعض القضبان النحاسية ، فأسرع وضربني على ظهري بأحدها فتوقد الشر بي وحملته بين ذراعي ورميته أمام مدرج المستشفى فظل برهة في مكانه دون ان يتفوه بحرف ، وما لبث أن لمّ شعثه وهرب قائلًا :

ـ إخ .. ما أنت الا ابن .

وذهبت الى حديقة درزهافين وجلست على احد المقاعد الى جانب نصب الشاعر هافين ، وشعرت برغبة حمقاء لان أقاتل الناس كلهم بأن احاول ان أثير سخطهم جميعاً ، فيهجموا علي ليضربوني ، فتحين فرصتي لأُلكم ما اريد ومن اريد ، فقط لاشفي غليلي !

ولكن الحديقة اليوم والشوارع القريبة منها مهجورة فارغة لا تجد احداً فيها ، لشدة الرياح الباردة التي تحمل معها ما تشاء من الغبار ومن الاوراق الصفراء ، ثم اخذ الهواء يزداد وحالت السماء

الى لون رمادي قاتم .

رفعت بصري الى هذا التمثال البرونزي وقلت .. عاش هنا رجل عظيم... نعم قرب هذا المكان، إنـه ياكوف ، ذو الروح المنعزلة ، والمحارب بالله بكل قوى عقله .. ومات ميتـة بسيطة عادية . وهذا الاحمق نيقولاي .. بامكانه أن يقـــاتلني او ينادي الشرطة ويسجنني ايضاً . حقاً، الاغبياء كثير في هذه الدنيا.

- ٢٥ -

الهجوم على الجامعة

كنت قاصداً الخياط روبتوف فوجدته منحنياً على طاولته في غرفته الصغيرة ، وهو يرفو سترته تحت ضوء باهت . فقلت له :

ـ انعي لك ياكوف .

فجمدت الابرة في يده ، ورفع بصره نحوي مبدياً اسفه . وكاد يرسم علامة الصليب على صدره ولكنه قطع الحركة . وقذف الراحل بشتيمة ، وقال :

ـ هه .. وما في ذلك من عجب ! كلنا سنموت . هذه سنة الكون ، ولقد قبضت الشرطة ذلك الاحد على جارنا النحـــاس الذي تعرفت عليه بواسطة بلتيموف ؛ شخص ماهر وصـــديق الطلاب .. اسمعت ؟ ان الطلاب يحاولون ان يقوموا بعمـل... اعذرني، لا ارى هذا اليوم جيداً ، الا تسمح بأن تخيط لي هـذه

الرقعة ؟ من الصعب التفكير في هذا الجو .

ووضع في حجري سترته واعطاني الابرة، وراح يجوب ارض الغرفة ، ويداه خلف ظهره وهو يدمدم في سعاله :

ـ اننا كالشعلة ، احياناً هنا واخرى هناك ، وفي النهاية يقفز الشيطان علينا او ينفخ علينا فنتطفىء . ونفس الرواية تتمثل من جديد وبلا انقطاع . سأهجر هذه المدينة الضائعة التعيسة ،قبل ان يحين وقت جمود الامواه ويتعسر السير على القوارب .

وتوقف برهة صامتاً وهو يحك صلعته ثم اردف :

ـ نعم ، الذهاب . . والى اين وقد جبتُ القفار والامصار ، ولم يبق مكان على وجه البسيطة لم اعبره ؟. حقاً انني شقيت في ترحالي . الشقاء هو كل ما جنيته من دنياي هذه .

وبصق على الارض ثم اردف :

ـ لقد حقّت اللعنة على الحياة . . عيش وعمل وانهاك قوى ، ولا نربح شيئاً بعد الكد لا لروحنا ولا لجسمنا .

ووقف جانب الباب لبرهة قصيرة اطول من وقفته الاولى لكأنه يصغي الى قولي من الشارع ثم اقترب مني على حين غرة وقال:

ـ هوذاك يا اليكسي مكسيميتش ، وما اقوله صحيحاً . لقد اضاع ياكوف حياته بنكران الله العظيم. وماذا يستفيد الانسان اذا انكر الله او القيصر مثلاً ؟.. انما عليه ان يغضب من حياته الواهية هذه ، ويصرخ واخوانه بصوت واحدٍ وعالٍ .. لا !. وهذا كل ما في من هذه الحياة .

آه يا اليكسي مكسيميتش ، اني رجل هرم ، وقد ولدتني

امي بعد اواني وما كان عليها الا ان تلدني بعد اعوام . وسأصبح قريباً اعمى ، او كالحجر ، وهذا مؤسف حقاً. هل انتهت السترة؟ شكراً لنذهب الى الحانة ، ونحتسي بعض الشاي .

قال لي حين كان يتعثر في طريقه وسط الظلام ، فيمسك بي ويستند إليّ :

– سجّل كلمتي الخالدة هذه عندك . . « قارب الجمر البارود ، وسينفجر في اقرب فرصة ، ويسحق ما امامه . سيحقق الشعب كل هذه المطالب بعد حين . نعم لقد نفد الصبر » .

لم نستطع بلوغ الحانة ذلك اليوم ، انما وصلنا الى جماعة من الملاحين النهريين المحاصرين لبيت الدعارة الذي كان يحميه عمال من مصنع آلافوزوف . وقال روبتوف ضاحكاً وهو ينزع نظارته مرافقاً لهذه المعركة :

– كلما يجري تعطيل في البلدة يحصل التقتيل هنا .

ولما عرف ان اصحابه بين العمال التحق بهم واخـــذ يشجع اصحابه بقوله :

– قاوموا يا ايها النساجون . . إسحقوا حتى الضفادع . . هيه!

من الغريب ان يشاهد المرء هذا الحماس في شخص هذا المسن الهزيل ، والاغرب كيفية صدّه الضربات المعادية ، او ضربـــه الاعداء بكتفه الايمن القوي .

ان رغبة الجمهور في هذا القتال هي للتفكه والمرح ، يحاولون فيه تغذية اجسادهم بالرياضة الحرة . وهجم الجنـــد هجمة شعواء على العمال فهزموهم الى الابواب ، حتى ان الالواح الخشبية قـد

تصدّعت لكأنها تحتج على ما يحدث . وتسلق اثنان من العمال سطح البيت وشرعا في الغناء :

« اننا لسنا لصوصاً . . .

كما لسنا مخادعين . . . »

« لم نقطع على الناس طرقهم

انما نحن صبية يمرحون

نعم اننا نحن ملاحون »

فدوى في الفضاء صوت صفـــارة الشرطي ، ولمعت ازراره الصفراء وسط الظلام ، وسمع وقع نعال قوية مسرعة . وواصلت الاغنية نشيدها :

« نقذف كل مساء بشباكنا

ونسحبها الى الساحل ملآنة »

« الى بيوت التجار الاغنياء المسنين

والى اقبيتهم . . وحظائرهم »

واخيراً القي القبض علينا — انا وروبتوف — مع ستـــة اشخاص لا نعرف اذا كانوا اصدقاء او اعداء . وفي طريقنـا الى النظارة سمعنا ترجيع الاغنية يصل الينا مع الريح العاصف :

« إيه . . لقد حملت شبكتنا اربعين سمكة

اسود وبلطيقي ، وابيض ، وابراهيمي »

فابتسم روبتوف ابتسامة المنتصر . والدم يسيل مـن انفه ومن فمه وقال :

— الحمد لله ، ان شباب الفولغا لم يُغلبوا يوماً .

ثم همس في أذني قائلًا :

ـ حاول ان تهرب من هذا المأزق . . ترقب الفرصة السانحة ، لماذا أنت ذاهب معنا الى النظارة ؟

وعندما وصلنا الى منعطف شارع منحرف انطلقت أعدو فيه ، فاقتفى أثري بحار طويل ، وكان ان غبت عن ناظريه وكان هذا آخر عهد لي بصديقي نيكيتا روبتوف المحبوب .

انقلبت حياتي الى جحيم لا يُطاق ، وعظم اضطراب الطلاب ، ولم أستطع ان أفهمه تمام الفهم ، أو ان افهم معناه ، ولقد أخفقت في فهم الصراع الحقيقي الكائن خلف مشاعري الذي يحمسني أشد الحماسة للدراسة في الجامعة حتى ولو آلموني ، حتى ولو قيل لي :

« يمكنك الدراسة شرط ان تجلد كل صباح احد في ساحة نيقولا بيفسكايا » لقبلت دون تردد . وحين اقتربت من مخبز سيمينوف سمعت ضجة العمال المتعالية ، فاعتراني شوق غريب للذهاب إليهم . كانوا يضعون خطة الهجوم على الجامعة وضرب الطلاب . وقال احدهم بخبث :

ـ سنأخذ معنا بعض الاثقال الحديدية .

أردت ان اناقشهم لأمنعهم عن فعلتهم الشريرة ، ولكني كنت ـ أنا نفسي ـ أشعر بالكراهية نحو الطلاب فكيف اقف الآن بين هذا الخضم الهائج لاساعدهم ؟ ولم أدرِ سبب رغبتهم في ضرب الطلاب ! ؟

فتركتهم وعبرت الشوارع قاصداً ضفة كابان وجلست هناك أرمي الحجارة في الماء ، وارقب إيقاعها في الماء العكر ، ومرددا جملتي التي ظلت تطاردني حتى النهاية ، وماذا عساني ان افعل الآن ؟

كان رئيس المخبز يجيد العزف على الكمان فبدأت اتعلمها منه لازجي فراغ ليلي ولازعج بموسيقاي الحارس والفئران . وقد تعلقت بالموسيقى وشغفت بها . ولكن في احدى الليالي صدف ان غادرت المخبز لبرهة قصيرة حين كان يعلمني رئيسي العزف على الكمان دون ان أغلق علبة المال ، وحين عدت وجدته وهو يحشو المال في جيبه . وعندما شاهدني اقترب مني بلا وعي ومدّ لي خديه وقال بهدوء ميت :

— حسناً ، اضربني . أنا طوع امرك .

كانت شفتاه ترتجفان ، ودموعه الساخنة المتلاحقة تنهار من مآقيها الغارقتين في بحر من الدمع ، فحاولت ان اضربه ، ولكني حسبت للموقف ألف حساب ، فجلست على الارض ، وأسبلتُ قبضتي ، وقلت له بصوت خافت خائف ان يفرغ كل ما أخذه ، وكذلك فعل . ثم اتجه الى الباب طالباً الهرب ، ولكنه توقف ، وقال :

— أرجوك ان تعطيني عشر روبلات .

فأعطيته ما أراد ، وخرج ولم يعد وقد كففت بعدها عن تعلم الموسيقى .

- ٢٦ -

الانتصار على الذات

حاولت ان انتحر في شهر كانون الاول . وكتبت على هذا الحادث قصة اسميتها « حادث في حياة ما كار » عن حادثي لهذا

الجرم الذي لم أوفق به . ليست قصة جميلة بل فارغة من حقيقة الوجود ، ومع ذلك سأسرد لك القصة كلها ، وهي ضعيفة من كل نواحيها ما عدا موقف واحد هو الانتصار على الذات .

اشتريت مسدساً يحوي اربع طلقات من السوق ، فافرغت واحدة منه بصدري آملاً ان اصيب القلب ، ولكني اخطأت الهدف فاخترقت الرصاصة رئتي ، وبقيت صريع الفراش أشهراً . وبعد ان بدأت اشعر وادرك أحسست بخجلي الطاغي ، وعدت الى مخبزي لأعمل به عملي .

وفيما كنت عائداً في احدى الامسيات الى المخبز في اواخر شهر آذار وجدت خوخول بجانب النافذة خلف الحانوت ، كان يدخن سيجارة خفيفة ويحملق مفكراً في سحاب الدخان المحيط به ، وسألني دون تحية :

ـ ألديك بعض الوقت الفارغ ؟

ـ عشرون دقيقة فقط .

ـ إذن اجلس هنا . اريد ان احادثك في امر ذي بال .

كانت سترته ـ كالعادة ـ واصلة الى ذقنه ، ولحيته منتشرة على صدره ، وشعره هابطاً على جبينه بعناد ، وكان لابساً حذاء فلاح ثقيل ، وبدأ حديثه بهدوء :

ـ والآن أتحب ان تذهب معي لتعمل في حانوتي ؟ اني اقيم في قرية كراز نوفيدوفو التي تقارب الاربعين فرسخاً على الفولغا . ستساعدني في حانوتي هناك ، ولن يكلفك ذلك الكثير من العمل ، وعندي مكتبة حسنة ، وبامكاني تقديم ما فيها لك لمطالعتها . .

أموافق انت ؟ . .

فأجبته وانا انظر الى تقاطيع وجهه :

ـ نعم موافق . . .

ـ اذن كن في تمام السادسة من صبـــاح الجمعة على رصيف كورباتوف ، وسلْ عن الجندول الذي يقلُّنا الى القرية وانتظرني هناك . وصاحبه فاسيلي يانكوف . . طابت ليلتك . .

وفيما هو ينهض ليودعني سحب ساعته الفضية من جيبه وقال:

لقد استهلك حديثنا ست دقائق من العشرين . ها ، إن اسمي روماس ميخائيلو انطونوفيتش . .

ثم غادرني ، دون ان يلتفت إلي ، بمشيـــة تدل على القوة والرشاقة رغم هيكله الهائل المتين . وبعد يومين ـ اي يوم الجمعة ـ انطلقت الى المـكان الذي تواعدنا على اللقاء فيه .

- ٢٧ -

الحياة هي المنحطة . .

أخذت كتل الثلج الطافية على سطح الفولغا ، تسير متلوية مع المجرى المليء بالأتربة ، وتقترب في سيرها من قاربنا وترتطم به ، فتتحطم على جوانبه بشكل بلور لامع . وكان الهواء البـــارد يسوق الامواج ليكسرها على الشاطيء ، وتنعكس اشعة الشمس على الكتلة الثلجية ، فتبدو كأن سماءً بنجومها رُكبت فيهـــا .

وجندولنا يسير سيراً متواصلاً تحت اشعة الشمس البراقة .

كان بانكوف يدير دفة السفينة .. انه فلاح فتي ، يرتدي ألبسة انيقة ، وسترة مصنوعة من جلد الغنم المدبوغ ، محلاّة بحبال ملونة . وجهه هادىء وعيناه باردتان ، ولا تظهر على شكله هيئة الفلاحين . ويشاركه العمل كوكوشكين ـ صغير الجسم يرتدي سترة ممزقة مربوطة بحبل عتيق من وسطها على خصره . وكان هذا يكلم قطع الثلج وهو يدفع الجندول برمحه الطويل الذي يغرزه في قرار النهر ، قائلاً :

ـ ابعدي عن طريقنا ايتها الملعونة . الى اين تظنين نفسك ذاهبة ؟

قال لي روماس حين كنا جالسين على الصناديق المكدسة :

ـ ان الفلاحين لا يحبونني هناك ، وأخصهم بالذكر من وسعت أحوالهم . وبكل تأكيد انك ستشاطر في الاحزان والاتراح هناك .

عندما سمع كوكوشكين هذا الكلام أدار وجهه الهادىء نحونا وقال بشيء من العنجهية :

ـ انه القسيس فقط الذي يكرهك يا انطونيتش .

ـ نعم هو ذاك يا صاحبي .

ـ انك كالشجى في حنجرته .

ثم واصل خوخول كلامه قائلاً :

ـ ولكن لدي عدداً من الاصحاب ، وسيصبحون اصدقاءك ايضاً ..

كانت شمس آذار ترسل الينا أشعتها الدافئة ، واخذت

الأشجار العارية تتمايل على ضفتي النهر . وترى الثلوج متراكمة بين الشقوق الصخرية او تحت ظلال بعض الاشجار المصفوفة على الشاطيء . . فألحظ نفسي كأني في حلم جميل عذب رقيق .

وحشا كوكوشكين غليونه بالطباق ، وواصل كلامه كأنه الفيلسوف قائلًا :

ـ انك لست بزوجة القسيس حتى يخاف عليك ، ولكن هذا واجبه . أليس كذلك ؟ . . انت تحب كل المخلوقات حسب الطريقة المدفونة بالكتب .

ـ من الذي جعل وجهك بهذا الشكل ؟

ـ لا ادري ، بعض اللصوص قد فعلوا ذلك بي .

ثم أضاف قائلًا بشيء من التكبر :

ـ ان رجال المدفعية قد ضربوني . ها . . ولا اعلم كيف نجوت منهم ؟ . .

فسأله بانكوف :

ـ ماذا جعلهم يفعلون بك هكذا ؟ أهناك من سبب ؟

ـ أية حادثة تعني ؟ حادثة البارحة أم حادثة رجال المدفعية ؟

ـ البارحة .

ـ أيستطيع المرء في مثل تلك الآونة ان يفقه العدو الذي هجم عليه ؟ اني لأشبههم بالحيوانات . لا يستعملون قبضاتهم إلا لأتفه الامور .

فقال روماس :

ـ أعتقد انهم انما ضربوك لتهذيب لسانك . انك لا تعلم معنى

الحذر، وان كنت تطلب من هذه الحيوانات ان تنال قسطاً منه.

ـ ربما يكون ذلك ، والحقيقة انها عادتي قد اعتدت عليها ولا أحيد عنها . اريد ان استفسر عن كل امر ، وسأسأل الناس لأعلم كل جديد ، وان سبب لي ذلك القتل .

وفيما نحن في الكلام اذ اصطدم حيزوم السفينة بكتلة ثلج كبيرة وكذلك جانبها الايمن ، فأسرع كوكوشكين الى عمله ، بينما كان بانكوف يوبخه :

ـ خلّ عملك نصب عينيك يا ستيبان .

فأجابه دون ان ينظر اليه :

ـ إذن لا تدفعوني الى الكلام . اني لا استطيع القيام بعملين في آن واحد .

واخذ الاثنان يتراشقان بسباب ضاحك وكلام ساخر ، ثم التفت روماس إليّ وقال :

ـ ان التربة هنا اسوأ من تربة موطني اوكرانيا . ولكن طباع اهل بلدتي واخـــلاقهم احسن بكثير وهم ماهرون وذوو مواهب قوية .

أصغيت الى حديثه المنسجم البسيط بكل انتباه وشعرت انه ذو علم واسع وانه عصامي محبوب ، عرف كيف يفهم اخوانه ، وانه لمن المبهج جداً انه لم يكن يسألني عن سبب محاولة انتحاري ولو ان شخصاً مكانه لسألني هذا السؤال في اقرب حين ، والشيطان وحده يعلم كيف اني حاولت ان اقتل نفسي.

اخذت الشمس تسطع بنور مشرق من ثنـــايا الفولغا ،ذلك

النهر الهادىء البعيد ، فترسله بلون يشابه صدأ الفولاذ . ومع ان اطرافي كانت باردة فان روحي فرحة تماماً لهـذا الجو الربيعي الملائـكي ..

وصلنا القرية قبيل الظهيرة . وأول ما بان لنا من القرية قبة الكنيسة الزرقاء ثم تلتها في الظهور دور الفلاحين المبنية بنـــاء حديثاً . في الحقيقة كان المنظر سحراً للعيون ، ومسرة للقلوب .

لقد سبق ومررت بهذه القرية على قوارب بخارية ، ولكن هذه المرة أحلى واجمل . ثم أنزلنا الأمتعة ، وكان روماس يناولني الأكياس ويقول :

ـ انك قوي بكل تأكيد .

ثم نظر الى الكيس الذي يحمله بين يديه ، وقال بصوت مرهف :

ـ ألم تعد تشعر بألم في صدرك ؟

ـ .. كلا مطلقاً

سررت من كيفية سؤاله الماهرة هذه لأني لم أحب أن يعـلم الفلاحين محاولة انتحاري ابداً . فقال كوكوشكين بشيء من الثرثرة :

ـ يا لك من قوي .. لست بحاجة الى كل هذه القوة في عملك ابداً . من اي البلاد انت أيها الشاب ؟ أمن « نيجني او فورونه »

وتقدم فلاح طويل القامة ، وهو لابس ألبسة قطنية له لحيـة مجعدة وشعر زهري وعندما وصل الضفة قال بهدوء وابتسامته على ثغره المنفرج :

ـ اهلاً وسهلاً بكم .

ثم ألقى نظرة نحو عملنا ، وبسرعة مد خشباً عريضاً من الشاطىء الى السفينة ، وقفز اليها وقال :

ـ استعدوا للبراميل . وأنت أيها الشاب تقدم وساعدني .

كان كثير الاناقة ، قوياً جداً ، ذا عينين زرقاوين لامعتين ، ووجنتين قاسيتين ، وأنف كالتفاحة . وقال له روماس :

ـ انتبه من لفحة البرد يا إيزوت . .

ـ من ؟ أنا !.. لا بأس علي .

ودحرج برميلًا من الكيروزين (كاز) الى الشاطيء ، ونظر الى ايزوت وقال :

ـ أجاء ليعمل في حانوتك هذا الشاب ؟

ثم اقترح كوكوشكين ـ مازحاً ـ قائلًا له :

ـ حاول أن تتصارع معه يا إيزوت .

ـ ها ، إني أرى على وجهك آثاراً لضربات جديدة قاسية ، يا لك من أحمق . اضربك احد من البشر ؟

ـ اي بشر تقصد ؟

ـ الذين هشموا لك انفك .

فالتفت ايزوت الى روماس وقال :

ـ ستصل العربات توّاً ، إذ اني شاهدتكم عن بعد وانتم وسط النهر . إذهب الى بيتك يا أنطونيتش وسأعتني بالطرد بنفسي .

كان اتجاهه نحو روماس اتجاه صديق غيور يحبُّ ان يجميه من عوادي الحياة . ودخلنا بيتاً حديث البنيان تفوح من جدرانه روائح الخشب الرطب ، الجديد التركيب ، ثم توسطنا غرفة

مرتبة نظيفة ، ولمحت فيها امرأة في زي أهـــل القرية ، تتحرك بنشاط واعتداد، حاملة سماط العشاء بعينين حادتين . أما خوخول فانه انهمك في اخراج كتب من حقيبة مفتوحة امامه ليرتبهـا في المكتبة . وقال لي :

ـ ان غرفتك في أعلى البيت « في المنظرة» .

وتوقفت أمام منظر القريةالبائن أمامي منافذة غرفتي، وامام البيت فسحة واسعة تحتلها الأشجار الفارعة . ولمحت عن بعد قباب الحمـــامات هنا وهناك . وخلف الفسحة تمتد الرياض الخضرة ، ثم الحقول البعيدة المدى حتى خط الأحراج عند الافق . وعلى قبة أقرب حمام مني رأيت فلاحاً مكوِّراً نفسه ومحملقاً بنهر الفولغا ، من تحت كفه الذي يمنع به حر الشمس ويجلب الفيء .

سمعت جمجمة عربة تجرها بقرة صهباء ، وامرأة هرمة مرتدية ثياباً سوداء تركض في البوابة وتقول لولديها بصوت حاد :

ـ عليكما اللعنة .

ولكنهما هربا منها بأسرع ما يمكنهما العدو. أية حياة تنتظرني وسط هذا الملأ الجاهل !.. ثم دعيت الى العشاء ، فنزلت لارى ايزوت يحادث روماس متمدداً الى الامام دون حذاء ، والبرد يأكل قدميه ولكنه توقف حين دخلت . فسأله روماس :

ـ أكمل .. وماذا حدث بعد ذلك ؟

ـ هذا كل ما هنالك، لذا فقد قررنا ان نعمل بأنفسنا وليكن مسدسك معك في كل آن أو عصاً قوية تحرس نفسك بها . ولا تكثر من الكلام مع بارينوف لأنه وكوكوشكين كالمرأة لا

يضبطان نفسيهما عن اي امر .

ـ لا . .

واخذ روماس يتكلم عن ضرورة تنسيق الفلاحين الصغار لتحريرهم من مخالب التجار المستثمرين ، وكان ايزوت يصغي الى أقواله بانتباه زائد . فقال بعد ان اتمّ روماس كلامه :

ـ وهكذا لن يترك ذوو البطون المليئة لك مستقراً تهدأ فيه ، وتركن اليه .

ـ ستري اني لا اهاب الايام .

ـ لا أريد الا ان انبهك فقط يا صديقي .

كنت اراقب ايزوت وافكر انه حتماً يشابه « كارونين وزلا توفراتسكي » او يجب ان يكون واحداً منهما ، يأخذون قصص الشعب ليقدموها له مهضومة بانقان دون ان يزيدوا شيئاً من عندهم . . انباستطاعتي هنا ان أعمل يداً بيد مع رجال اذا قالوا فعلوا . وعندما انهى طعامه قال :

ـ لا تجعل الامور تُنجز جزافاً وكيفما اتفق يا ميخائيلو انطونوفيتش . عليك ان تسير بخطى متئدة . وبعدأن غادرنا ايزوت قال روماس :

ـ انه رجل شريف وماهر ، ولكن لسوء الحظ أمّي يجهل القراءة إلا قليلاً . ويمكنك ان تساعده في تعلم مباديء اللغة .

مضى من الليل ثلثاه ، ونحن نطبّق اسعار السلع الموجودة في الحانوت . . وقال لي :

ـ إني أبيع بسعر ازهد من اسعار البائعين المجاورين لي ، لهذا

فهما يبغضاني ، ويرغبان بي الشر . ولكني لست هنا ، في هذه القرية ، للبيع والشراء أو طمعاً بربح أنتفع به . إنما انا وحانوتي ، كأندريه وحانوته .

فأجبته مصدقاً قوله :

ـ حقاً ، ولقد شعرت بشيء مثل هذا منذ اللحظة الاولى .

ـ ألم تر ان الشعب تواق الى اكتساب العلم بأية حيلة ؟

ثم أغلقنا الحانوت ـ من الداخل ـ ودخلنا ، وقبل ان نعبر الدار سمعت خبط نعال حذرة الخطوات ، فقال لي :

ـ انتبه ، أتسمع ؟ .. هذا هو ميكان ـ رجل لا يملك لا اهلاً ولا سهلاً ، حيوان دنيء وخبيث يحب الشر ويهواه كما تحب الحوراء الجميلة المغازلة . فكن حذراً منه ومن غيره ايضاً .

وعدنا بعدها الى غرفة الجلوس واشعل سيجارته ، واخذ الدخان يتطايره من بين شفتيه السمراوين ، وهو يتكلم كلمات واضحة متزنة ، مخبراً اياي انه قد لاحظ علي منذ اوائل شبابي كيف اني أبعثر زمني . ثم اضاف قائلاً :

ـ انك ماهر ، وعلى العمل مثابر . وأهدافك محمودة تمام الحمد . وكل ما تحتاج اليه الآن هو الدراسة فقط لينمو عقلك ويبزغ تفكيرك . لست أعني بالدراسة الجلوس بين رزم الكتب وانت بعيد كل البعد عن الشعب المحيط بك ، انما هذا الشعب هو قسم ثان من دراساتك ، وقد قال حكيم ، وقوله حق « جَنْيُ العلم نوعان : علم تأخذه من الكتب ، وآخر تستنبطه من الشعب . ان التعليم الثاني قاس بعض الشيء ولكنك لن تنساه أبداً » .

ثم غير افكاره في حديثه الثاني ، عن أهم امر وهو ايقـــاظ الفلاحين ، ثم قال :

ـ يتحدث طلاب المدن عن الشعب ، ولكن هذا لن يجـدي فتيلاً .

ثم نهض وأخذ يذرع ارض الغرفة وهو يقول :

ـ الحب يعني التغاضي ، التسامح ، المغفرة . وجميل جداً ان نحب امرأة ، ولكن الشعب أيمكننا التغاضي عن جهله ، او ان نسامح هفواته ، او ان نوافق على دناءة شروره ؛ أيمكن ؟ قل لي أيمكن ؟ . .

ـ . . لا !

ـ ها نحن الآن . ان كل صحبك في المدينة يطالعون مؤلفات نيكروسوف ويتغنون بأقواله ولكنهم لن يجنوا افادة منـــه ويجب ان نفيد الفلاحين وننبههم إلى ما يجب ان يعلموه . اسمع قولاً لنيكروسوف :

« لست بالشخص المنحط ولكن الحياة التي تعيشها هي المنحطة . انك لا تعرف كيف يجب ان تنهض حتى تجعل حياتك هنيئـــة مسرورة ، او افضل ـ بكل صراحة ـ من عيش الحيوان البهيم . يبحث هذا الحيوان عن ضروريات أكثر مما تبحث انت ، انـــه يدافع عن نفسه اكثر مما تدافع انت . كل النبلاء ورجـال الدين والاساتذة ، وحتى القياصرة كانوا فلاحين عاملين في المـــاضي ، أتعلمون ذلك ؟ أدريتم ما اعنيه ؟ إذن عليكم ان تعيشوا بعزة نفس لا ان توطأوا بمناسم غيركم » .

ثم سكتْ ولم يتكلم وطلب من الطاهية ان توقـد المدفأة ، وعاد بعدها يعرض عليّ مكتبته ، ومعظمها يتعلق بعلم واحد او اكثر ، فكنت أجد مولفات لـ « باكل ، لايل ، ليكي ، لابوك ، تايلور ، ميل ، سبنسر ، داروين . ومؤلفات اخـــرى روسية لـ بيزاريف ، دوبرو ، ليوبوث ، تشيرني تشيفسكي ، بوشكـين ، كونكاروف نيكرسوف .

كان كفه الواسع يمسّد دفتي الكتاب ، كأن شخصاً يمسح على هرة صغيرة . ثم همس بلطافة قائلًا :

ـ كل هذه الكتب قيمة ، ويقولون انها نادرة . وقد أمرت السلطات بأن يحرق اكثرها واذا أردت ان تفهم حكومتك حق الفهم ، اقرأ هذا . .

واعطاني كتاب «ليفياثان» تأليف هوبز . ثم أكمل كلامه . . . وقدم لي كتاب الأمير تأليف ميكيافيلي الناقد المرح .

- ٢٨ -

حديث الثورة

وفيما كنا نتناول طعام العشاء أخبرني باختصار عما يتعلـــق بنفسه وحياته :

ـ إني ابن حداد يدعى « شيرنيكوف » وقد عملت في سكة الحديد لمحطة كييف ، واتصلت بالثوار ، وأسست مع جماعة من

زملائي في السكة جمعية للدراسة . ثم أوقفتُ ونُفيتُ الى مقاطعة ياكوتسك لمدة عشر سنين .

وبعد قليل من الصمت أردف :

ـ وقد ظننت في اول الامر ان الحياة في ياكوت خاتمة مطافي ، وان الشتاء الفظيع هنا يجمد أدمغة البشر ، وعلى كلٍ فلا تلزم العقول هنـــك . وبعد أن اكتشفت وجود بعض الروس في الاكواخ المتناثرة والقريبة منا ، أحسست ببعض الراحة ، وابعدت عن نفسي السأم والوحدة .

كان جماعة الروس هناك من الشباب الممتازين . واحـــدهم طالب جامعي يدعى « فلاديمير كورولينكو » وقد كنا صديقين حميمين ، وبعد ان انتهت مده نفيي ونفيه افترقنا ، ذلك لان الصديقين المتشابهين في وجهة حياتهما واهدافهما لا بد وان يفترقا يوماً . وهو عنيد مندفع ، ماهر في اي عمل يشتغل فيه ، حتى انه رسم بعض الايقونات ـ ولم أحب ذلك منه ـ وسمعت انه يكتب بعض المقالات لبعض المجلات الادبية بأسلوب رشيق قوي .

تحدث روماس في تلك الأمسية حتى منتصف الليل دون ان يتوقف ثانية ، ويريد في ذلك اثبات عزيمتي في صميم نفسي ، محاولاً إفهامي أن باستطاعتي ان أعيش معه . لم أتذوق قط متعة من متع الدنيا غير هذه الصداقة الجديدة ، حتى ولا نجاتي من الانتحـار . فأخذت أحتقر نفسي احتقاراً زائداً ، وفكرت اني شخص لافائدة منه وقد شعرت بجريمة حياتي السخيفة هذه . وهذا الشخص قد علم ما في طويّة ذاتي ففتحها بكل بساطة . وبكل ذوق أعـــاد لي

توازني وثباتي .. يالها من ليلة لا تُنسى .. وكيف أنساها وقد شعرت الشعور الهيّاب فيها .

- ٢٩ -

حرية الفلاح

فتحنا باب الحانوت يوم الاحد للتجارة بعد انتهائنا من القداس . ولم يمض كثير وقت حتى تكأكأ الشعب حولنا . وأولهم كان « مادفي بارينوف » القذر الثيـــاب والبشع الهيئة وذو الذراعين الطويلتين حتى لتحسبه أحد رجال الغاب المجهولين وإذا تطلعت إلى عينيه وجدتهما تحاكيان عيني امرأة لطيفة . وتقدم من روماس وقال له بعد ان حيّاه :

ـ ما أخبارك في المدينة ؟

ودون ان ينتظر الجواب التفت إلى كوكوشكين وقال له:

ـ عادت قططك يا ستبان وقتلت ديكا آخر .

ثم يغير الحديث ويخبرنا عن الحاكم وقد غادر قازان متجهاً الى بطرسبرج ليقابل القيصر ويطلب منه ان يأمر التتار بأن يُخـــلوا القوقاز والتركستان . وأخذ يمدح الحاكم :

ـ يا له من شخصية فذة ! .. الأمر العظيم فيه هـو أنه يدري ما يتطلب منه واجبه .

فأجابه روماس بهدوء :

ـ انك تختلق كل قولك .

ـ . . أنا ؟

ـ لا أعرف .

ـ انك لا تصدق انسيّاً يا أنطونيتش .

فقال بارينوف وهو يهز رأسه بعتاب :

ـ أنا ؟ اني آسف للتتار ، ولكن بلاد القوقاز تتطلب أناسا يعرفون العيش فيها .

وتقدم من بين الجمع شاب تعب ، قصير القامة نحيلها في ثوب خلق وعريض لكأنه ثوب غيره ، وله عاهة في وجهه غيرت كل ملامحه ، وجعلت فمه بحالة ابتسام مريضة وعينه اليسرى تغمز المرء تباعاً ، ويتبعها في عملها الحاجب . وأكمل بارينوف مستهزئاً :

ـ ها هو ميكان . . ماذا سرقت الليلة الفائته ؟

فأجابه بصوت واضح رنّان لكأنه الجرس :

ـ سرقت مالك .

ورفع يده الى قبعته يحيي بها روماس . ثم جاء بانكوف ، جارنا وصاحب دارنا مرتدياً سترة عصرية مدنية ، وعاقداً منديلاً أحمر حول عنقه ، وتجتاز صدره سلسلة فضية . فتفحّص ميكان بحدة من أسفل الى أعلى وقال له :

ـ سألصق عصاي وسط ظهرك إن اقتربت من بستاني مرة ثانية يا أيها الشيطان العجوز .

فاجابه ميكان بكل هدوء :

ـ نفس الكلام دوماً . . !

ثم اضاف متنهداً :

ـ لا جدوى لك إلا اذا حطمتَ جمجمة الانسان .

فاخذ بانكوف يصرخ بحدة ولكن الشيطان واصل كلامه :

ـ ومن يقول اني عجوز ؟ إني لم اتجاوز السادسة والاربعين بعد !

فصرخ بانكوف :

ـ لقد قلت في عيد الميلاد الماضي إن عمرك ثلاثة وخمسون عاماً ! لم الكذب ؟

فتقدم سوزلوف ؛ رجل ذو لحية موقّرة ،وتلاه صياد سمك، ثم أتى بعدهما عدد من الاشخاص يقـــاربون العشرة . وجلس خوخول الى جـــانب الحانوت يدخن غليونه ، ومستمعـــاً بكل هـــدوء الى الفلاحين الذين جلسوا حولي . وكنت انتظر جاهداً كيف سيجيب خوخول عندما يفتح ثغرات سهلة الانطلاق في الحديث ، ولكنه يصمت ولا يجيب ، اذ كان جامداً كالتمثال متتبعاً الحديث بهدوء .

ثم تقدم رجل سكران من الشارع يلوّح بذراعيـه كرحى الطاحون ، وتنطوي ساقاه بشكل منفرج تارة وملتصق اخرى.

كان حديث الفلاحين مقيتاً ومملًا ، وكذلك شعرت ببعض الخمول ينالني من هذا الجو السقيم البارد الذي يهدد بطر قمطرير . وأخذ عقلي يعيد عليّ ذكريات المدينة الضائعة بأضوائها المختلفة ، ومروز الاشخاص في شوارعها المزدحمة ، والمناقشات المثيرة في الغرفة تتلاطم مع صدى اسماعي .

حينما كنا نحتسي الشاي مساء سألت خوخول عن أي وقت سيبدأ في حديثه مع الفلاحين فاجاب :

ـ أتحدث ؟ .. وعن أي شيء تريدني ان أتحدث ؟

وبعد ان شرحت له فكرة الوطنية والحرية ، وسمع حديثي بكثير من الانتباه وقال :

ـ ها ها ، لقد فهمت . ولكن اذا تحدثت اليهم عن اشياء كهذه وفي الشارع أيضا ، فسأرسل ـ لا محالة ـ لاقيم في المنفى .

وملأ غليونه بالطباق وأشعله ، وأخذ يمتص منه ، وينفخ من فيه حتى احاط نفسه بجو اغبر من الدخان . ثم عاد الى حديثه بهدوء :

ـ ان الفلاح حذر ، ولا يؤمن ولا حتى بنفسه ولا ـ طبعاً ـ بجيرانه . ويخشى أي رجل غريب إذ لم يمض ثلاثون عاماً على نيله حريته . كل فلاح في سن الاربعين كان فقيراً في صغره ولا يزال يتذكر حالته الاولى ولا تعني هذه الحرية الاسمية ، التي حصل عليها ، له شيئاً ، ومن الصعب عليه ان يفهمها . ومعنى الحرية هو سهولة العيش الرغيد ، ولكنك اذا ما تحركت قيد أنملة ، لا بد وان تصطدم بموظفي القيصر .

ـ ٣٠ ـ

استبداد القيصر

كان البرد قارساً ، والغيوم تتراقص عبر السماء الزرقاء فتحجب الشمس حيناً وترسلها حيناً آخر ، فتتناثر بقع الظل هناك كأن

الجو مخمل يتلاعب أمام عينيك . وغدت البنات العذارى مرحات بألبسة الآحاد ، هائمات ببراءة وسط الشارع ، راميات باسراع أقداماً ظريفة ، كاشفات بلطافة عن احذية من الجلد القاسي اللماع . ويركض الصبية وراءهن وهم يحملون عصياً للصيد على اكتافهم .

والفلاحون المتهادون ببطء أمامنا ينظرون الى جمعنا بأطراف أعينهم . ثم يرفعون أصابعهم إلى قبعاتهم للسلام ويتابعون طريقهم .

وشرع ميكان وكوكوشكين في مناقشة ودية عن قوة ساعد التجار وأصحاب الاطيان وقد دافع ميكان عن اصحاب الاراضي وكوكوشكين عن التجار :

– إن جد فينكيروف حمل نابليون من قذاله . ويستطيع فينكيروف نفسه ان يحمل اثنين من بنيقاتهما ، ويلوحهما في الهواء .

فوافق كوكوشكين قائلاً :

– كفى كفى ، ولكن على كل حال التاجر يأكل أكثر من صاحب الأطيان .

فأضاف الرجل المسن الجميل الهيئة بقوله :

– لقد فقد الفلاحون نقطة ارتكازهم يا ميخائيلو أنطونوفيتش أيام النبلاء ، إذ منعوهم من العمل الجد ، والعمل كان كثيراً .

فأجابه ايزوت ساخراً :

– لماذا لا تقدم عريضة بحق الاقطاعية ؟

فنظر اليه روماس ، وأخذ يطرق غليونه على الحائط .

وانتظرته بفارغ الصبر حتى يتكلم .. ولكنه لم يحر جواباً ، وأنصت لحديث الفلاحين المفكك الاجزاء .

بالحقيقة ، أصل التغيير كان على يد القيصر ، إذ هو الذي انتزع الفلاحين من أيدي الاقطاعيين . ويريد في ذلك إحداث اقطاعية واحدة تحت إمرته ، يتحكم بها كما يشاء ويرغب . ولا بد ان يحين يوم – غير متوقع – عند ما يرغم القيصر على شرح هـذه الحرية مع ان الفلاحين يثقون به الثقة العميـــاء ، وهو السيد الوحيد لأرضهم .

انتزع القيصر الفلاحين من الاقطاعيين ، وبامكانه ان ينتزع السفن والحوانيت من التجار . إن الفلاح من حزب القيصر الآن. ويفكر بأن تعدد أسياد الارض يجلب الغلبة عليها ،ولكن وجود سيد واحد في الارض يساعدها وينمّيها . ولا بد ان يجيء يوم ويشرح فيه القيصر معنى الحرية .. !

يعيش كل فرد بخوف وجزع ، وهو منتظر ذلـــك اليوم السعيد . فالفلاح يريد الكثير وبامكانه أخْذه ، ذلـك لان كثيرهم كثير عند القيصر . ولكن بأية وسيلة يمكنه اخذ هـــذا الكثير ..! واني ذهبت وجدت الموظفين أعداء للفلاح . نعم ، وبكل صراحة هم انفسهم أعداء للقيصر . ومـع ذلك لا يمكنك استفتاء الفلاحين عن رأيهم ، حتى ولا يوجد واحـد منهم خبير بأفكار يستحق هذا الاستفتاء .

- ٣١ -

طلقة قبل منتصف الليل

كان الهواء يقذف بالامطار على نوافذ المنازل بشدة ،والضباب الرمادي قد ملأ الجو ظلاماً ، وكذلك اقتحم قلبي فأهاجه وضيقه. وعاد صاحب الصوت الهادىء يواصل كلامه :

– دع الفلاح يدرك ان من واجبه اخذ السلطة من القيصر . يجب ان تعلمه ان من حق الشعب اختيـــار موظفيه ، ورئيس شرطته وحاكمه وحتى قيصره .

– ولكن هذا يستغرق قرناً كاملاً .

فأجاب هازئاً :

– أو كنت تظن ان ذلك يحدث يوم الاحد بعد عيدالثالوث المقدس ؟

سمعت طلقة نارية عندما دقت الساعة الحادية عشرة بالقرب من دارنا ، وقد كنت وحيداً فأسرعت لمكان الصوت رغم المطر والظلام ، فوجدت ميخائيل انطونوفيتش متقدماً من البوابة ، وكأنه تمثال من رخام جامد ، يسير ببطء وحذر متجنباً السواقي المائية التي كانت تمر من تحت قدميه ، فلما رآني قال :

– ماذا اخرجك من المنزل ؟ ألطلقة ؟ .. انما اطلقتها .

فسألته بكلمة صامتة خرجت من شفتين جامدتين :

– ماذا حدث ؟

ـ لا شيء بالمرة .. حاول بعض الاشخاص مهاجمتي ، فاطلقت رصاصة في الهواء فهرب الجميع .. أتعتقد اني آذيت الهواء ؟

وحين دخلنا الغرفة خلع ما عليه من الثياب المبللة ، ونظف ذقنه من قطرات المطر ، وصار يهز رأسه ؛ ويخرج من انفـــه صوتاً يشبه صهيل الخيل بعد ان يشرب ..

ـ كأن هذا الحذاء اللعين حفرة مليئة بالماء ... يجب ان اغير ثيابي .. أيمكنك تنظيف المسدس ؟ .. ارجوك الاسراع قبل ان يعلوه الصدأ ، أغسله بالكاز ان أحببت ..

كم كنت أعجب من هدوئه الشامل ، ومن عنـاده اللطيف الذي تقرأه على محياه ، ثم اخذ يرجل شعره امام المرآة ، وهو يقول :

ـ احذر على نفسك في المساء وفي ايام الاعياد خاصة . اظن انهم يريدون بك شراً انت ايضاً ، وإياك ان تحمل عصا ، فانهـا توقظ العداوة وتلهب الافئـــدة الحامية ، ولربما فكروا انك خائف منهم . ولكن الحقيقة ليس هنالك ما يخيف ، وانهم جماعة جبناء ضعفاء .

وتجددت حياتي ، واخذت المتع اللذيذة تترى علي كل يوم بازدياد . وانغمست بالمطالعة المتعلقة بالكتب الطبيعية ، لأن روماس نصحني بذلك قائلاً :

ـ هذا ما يجب ان تعرفه من العلم قبل كل شيء يامكسيميتش ، إن ملـكات العقل تبرز عند الانسان

كنت اعلّـم ايزوت القراءة والكتابة ، ثـــلاث مرات في

الاسبوع . كان في اول الامر حذراً مني وساخراً بي . وبعد مضيّ عدة دروس قال لي بروح طيبة :

ـ انك ماهر في التعليم ياشاب ! حقاً يجب ان يكون الانسان هكذا . .

وبعد ان لمس ذراعي قال بعجب :

ـ أقوي انت ! تعال لنتمرن ؟

واخذ عصا من المطبخ وجلسنا على الارض ، وألصقنا اقدامنا وكلانا يمسك بالعصا بيديه الاثنتين . وظللنا في بدء المعركة بتوازن كامل ، وكل واحد منا يحاول ان يرفع خصمه عن الارض ، بينما خوخول يشجعنا :

ـ هيا . . هيا . . اغلبه . .

وفي النهاية رفعني ايزوت ، واعتقد ان قهره لى زادني حباً له ، وقال لي :

ـ لاتهتم لهذه الغلبة ، ان جسمك قوي تماماً ، ولو انك تذهب الى الصيد معي لأصبحت قوياً اكثر من الآن بمرات . ان نهر الفولغا في الليل كفردوس الهناء .

وبعد ان درس الكثير تعجب من معلوماته الجديدة كثيراً ، وشكرني عليها جزيلاً . وفي بعض الاحيان كان ينهض في منتصف الدرس ، وينزل كتاباً من المكتبة وينظر فيه ، فترى حاجبيه وقد تراقصا وتجعدا ، وصوته يرتفع بجهود ، ويقرأ سطرين او ثلاثة اسطر بصوت عال ثم يلتفت نحوي وكأنه لم يصدق ماحدث ويقول :

ـ اني اجيد القراءة يا أليكسي .. أسمعت ما اقرأ ؟

ويقرأ ببعض التعب : « السكون المرعب المنبعث من الفيافي القفراء يشارك الأم الثكلى التي تبكي وحيدها على قبره ... » ثم سألني :

ـ كيف تجدني ؟

وعاد ليسألني بهمسة خفيفة :

ـ أبامكانك شرح ذلك لي ؟ كيف ينظر المرء الى هذه الحروف والخطوط فتتحول فجأة الى معان مفيدة وحكم بليغة ! .. وانا أتبين هذه الكلمات . هذه التي نستعملها ، من غير ان يهمس بها أحد في أذني ؟ لو كانت صوراً لما عجبت . ولكني بهذه الأحرف اتكلم وكأنما حضرتني حاضرة ، او اقرأ أفكار الأنسان مثلي . أيمكن ، قل لي أيمكن ؟

أي جواب يمكنني ان اقدمه له ؟ واية كلمات ناجعة استطيع إفهامه بها ؟ ولكم تألم عندما اجبته :

ـ لست أدري ، ولا أحد يدري .

ـ انه عمل سحري ..

فكان يرفع الصفحة تجاه النور ، وكنت تجد في حركاته هذه شيئاً من السذاجة البريئة ، كأنه طفل أنيس وديع . فعاودتني ذاكرتي الى هذا الفلاح البسيط ، الذي قرأت عنه عديداً من الكتب .

كان شاعراً كمعظم صيادي السمك ، يعشق الفولغا والليل والوحدة .. والحياة التأملية ، إذ ينظر الى النجوم وهي تدور في

سماءها ، ويسألني :

ـ لقد قال خوخول بأن شعباً يشا به شعبنا ، ومخلوقات تحاكينا وراء هذه البلاد ، أتعتقد انت ايضاً بذلك ؟ . . آه لو استطاع انسان الوصول الى ديارهم وسألهم عن طبيعة حالهم وسبيل حياتهم ، وأخبرنا . إذ ربما تكون حياتهم اجمل من حياتنا ، وأسهل . نعم ، لا بد ان تكون بلادهم اجمل من بلادنا .

من الواضح أنه يحب وطنه الذي انقاد فيه حين كان يتيماً ، والآن وهو عازب . صناعته صيد السمك ، مستقل عن كل انسان ، هادىء كل الهدوء ، قانع حتى ولو بالقليل ، ولكنه كان يكره بعض رعاع القرويين ، ويحذرني منهم .

ـ لا تخدع بكلامهم الاملس ، فذنب الثعلب املس ايضاً . كلهم مخادعون مراءون تراهم اليوم بوجه ، وغداً تراهم بغيره . لا يهتمون إلا بانفسهم ، ويدعون انهم يعملون للجميع . اما أغنياء الجيوب وفقراء الرءوس ، هؤلاء الذين ظاهرهم يسرّ ويؤنس ، وباطنهم يسوء ويبئس .

كان يتحدث عنهم بكراهية زائدة ، ولا يفتأ ذو الروح الطيبة يندّد بهم :

ـ وكيف امسوا اغنى من الباقين ؟ ألانهم اكثر مهارة منا ؟ عليهم اللعنة ما في البرّية انسان امهر من زميله . ولكن على الفلاحين ان يتجمعوا ويتعاضدا فيصبحوو كالبنيان المرصوص او كالقطيع الواحد . هذه الطريقة المثلى للوصول الى اطايب الحياة . واذا لم يفعلوا فقد شقوا القرية بسندانهم . انهم اعداء انفسهم لا

يفتأون يحاربون بعضهم . وحتى صديقهم خوخول لا يتوانون عن احداث القلاقل له .

حقاً انه قوي بعقله ، قوي بتفكيره . وعلى ما سمعت انه يجذب النساء ـ باناقته ـ اليه ، وكان مرضعاً للملاحقة والتعرض من طرفهن . فاعترف لي ببساطة :

ـ الحقيقة انهن يحببنني تمام الحب ، وأزواجهن يبغضونني تمام البغض . وإني لانفي زواجي من احدهم لو كنت امرأة . ولكن كيف لا تكون لطيفاً مع امرأة وهي الروح الثانية لك !.

والانسان الذي يعيش دون حب كالحصان يعتلف الحشائش ويحمل الاثقال ، لا يدري للتسلية معنى ولا للروح المرحة نكهة . ان ازواجهن يضيعون فرصة الحب ، ولا يشبعون زوجاتهم بالقدر الكافي ، فتفيق النساء ونفوسهن ولهى ، واجسامهن عطشى ، يردن المنهل فلا يجدنه ، يحاولن والزوج عنهن في بعاد ، حتى ولو كن في ربيع عرسهن .

وأنا ، ذلك الانسان المرح كالريح ، والحبيب الطروب ، أحوم حولهن كأني المتضور قرب سعف النخل . ولا اطلب منهن سوى شيئاً واحداً ، هو الا يتشاجرن من اجلي لاني مستعد لخدمتهن ، ووظيفتي خدمتهن . .

« كلكن متساويات لدي ، واني احبكن جميعاً ، كما آسف لما يصيبكن »

هكذا كان يناجيهن حين يغدو الى عمله صباحاً ويروح الى مكتبه مساء . وبوجه عليه ابتسامة خجل واصل كلامه :

— نعم ، لقد سبحت في كيمياء الخطيئة مع احداهن . سيدة راقية من المدينة ، أقبلت لقريتنا كي تقضي فيه صيفاً جميلاً . نعم كان قدها مياساً ، وجمالها صبوحاً ، وبشرتها البضة كأنها الفضة على عنبر ، وشعرها المقصوص كالعسجد الباهت يضـــاهي الحرير في نعومته ، وعيناها الزرقاوان كزرقة السماء فيها سحر وفيها خمر ، فيها عطف وفيها أناة . كنت آخذ لها سمكاً كل صباح . وكلما اراها لا استطيع أن اردع عيني عن تأمل جمالها ، فتسألني مرتبكة :

— ماذا بك ؟

فأجيبها وما زالت عيناي عالقة في سحرها :

— أولم تنظري الى المرآة ؟.. أما عرفت سحرك وجمالك ؟

فتجيبني بعين رصعها الوله ، وأقلقها دبيب الغرام :

— وليكن ذلك . سأراك هذه الليلة .

وفعلاً ، لقد جاءت ..

هذا البعوض اللعين الذي ضايقها ولدغها في كل مكان يصادفه من جسمها البارع العاري ، حتى انها لم يعد بامكانها التحمل :

— ان لدغات البعوض قاسية ، لا أستطيع تحملها .

كانت تقول ذلك في شيء من البـكاء .. هـــذه هي النساء يا صاحبي . نعم لقد كان زوجها الحاكم مسافراً .

وانهى حديثه قائلاً بصوت فيه بعض اللوم :

— نعم .. إن النساء تسمح للبعوض باتلاف حياتها .

- ٣٢ -

اني ذاهبة الى الدير !

وتحدث بكثير من المدح عن كوكوشكين :

ـ اعتن به . انه ذو روح سمحة وراقية ، يخطىء الناس في عدم حبهم له ، صحيح انه يتكلم كثيراً ، ولكنه لا يعي ما يتكلم عنه . . ومن منا كامل ؟

كان كوكوشكين فقيراً لا يملك ارضاً يزرعها ، إنما كان أجيراً عند ليبانكوف وكذلك زوجته تعمل في الزراعة ـ امرأة سكيرة ، قامتها فارعة ، ولكنها قوية الجسم ، فكهة الظل . وقد اجّرا بيتهما للحداد لفقرهما . كان كوكوشكين مغرماً بسرد الاخبار حتى إنه يختلق الاقاصيص من نفسه حين لا يجد ما يحكيه . وكل قصصه من نسيج واحد :

ـ هل سمعت ياميخائيلو انطونوفيتش أن احد الشرطيين اعتزل الوظيفة ليرتدي ثوب الرهبنة وقد قال بأنه سرق من الفلاحين وعذبهم ما فيه الكفاية ، ومن الصعب فعل ذلك ثانية وقد أحس بالخطأ الفاضح .

فأجابه خوخول بكل اتزان :

ـ واذا ظلت الامور على ما هي عليه الآن فستفقدون كل موظفيكم لا محالة .

فعاد كوكوشكين الى كلامه وهو يرفع من على رأسه ادران

الدجاج ، وبعض القش والتبن :

ـ ليس كلهم ، انما هم اصحاب الضمير الذين يجدون صعوبة في تبلُّغ النميمة والاحتيال ... ولكنك لا تؤمن بالضمير الحي يا خوخول ، اني الاحظ ذلك من نظراتك وأعمالك . ولكن مهما فكرت فلا حياة بلا ضمير . اسمعوا هذه القصة : « كانت هناك سيدة ...

وبدأ في سرد قصته عن احدى السيدات الثريات والماهرات جداً :

ـ كانت سيئة الطبع وخيمة المعشر ، حتى ان الحاكم ذهب بنفسه اليها بالرغم من مكانته وعمله . وطلب منها ان تكون حسنة السمعة اكثر من ذلك ، لأن الجدران اخذت تتهامس عن سوء افعالها ووصلت حتى بطرسبرج . وبالطبع اغرته بنظرة وأسكرته بكأس ، وأتت الحادثة ، ثم قالت له بصوت الناهي بعد ان كسبت قلبه :

ـ اني لا أغير طبعي ، هكذا عشت وسأبقى .. اذهب الى بيتك وكن مطمئناً .

ومرت ثلاثة اشهر على تلك الحادثة دون تغير ملموس ، الا في يوم ليس بذي بال جمعت فلاحيها وقالت لهم « اقتسموا كل ارضي وأغفروا لي .. ألوداع ، اني ذاهبة .. »

فقاطعه خوخول متمماً حديثه :

ـ الى الدير أليس كذلك ؟

فأومأ له برأسه مصدقاً قوله واضاف :

ـ نعم هذا صحيح ، لقد ذهبت الى الدير لتصبح الرئيسة فيه . وما أدراك بالقصة ؟ أسمعتها ؟

ـ كلا لم اسمع قصصاً مثل هذه حتى الآن .

ـ اذن كيف عرفت النهاية ؟

فأجاب بسخرية :

ـ اعرف تماماً ..

فهز كوكوشكين رأسه مجيباً :

ـ انك لا تصدق احداً ابداً .

مثل هاتين القصتين ينسج أقاصيصه ، وكلها متشابهة ... فلان يقترف الاثم في شبابه ثم يهجر الحياة الى الدير لقضاء أواخر العمر . عجباً من هذه الافكار المتوالية التي تطرأ على مخيلته ، فكان احياناً يقطب ما بين حاجبيه ويقول :

ـ ان التتار شعب افضل منا ، وما كان يجب ان نحتلهم .

ولما لا يجيبه احد على كلامه ينقلب الحديث فجأة ليدور حول التعاونية للمزارعين الصغار . وعندما يتحدث روماس عن سيبريا وفلاحيها الاغنياء ، يقول كوكوشكين مفكراً :

ـ اذا لم يصطد احد السمك لثلاثة اعوام فسيمتلىء البحر به وتفيض مياهه ويحدث الطوفان الثاني ، بعد طوفان نوح .. يالله الغرابة كيف تتوالد الاسماك !..

كانوا في القرية لا يعتبرونه شيئاً بالمرة . وكذلك قصصه واحاديثه الغريبة يكرهها الفلاحون ويلعنونه . ومع ذلك فانهم يصغون اليه بانتباه واهتمام زائدين ، فانهم انما يبحثون عن حقيقة

مخبأة في قصصه الخيالية ، ويسمونه « كيس هواء » اما بانكوف فانه يقول عنه بانه يتكلم بالالغاز .

كان ماهراً جداً ، وحذقاً في صنع النحاس ، وفي بناء المدافيء القرميدية ، وخبيراً في امور النحل ، ويعلم النساء اصول تربية الدواجن . وكل أمر رغب في صنعه فانه ينهيه بنجاح رغم انه يعمل بلا اكتراث ، وكان مغرماً في تربية القطط والحمام ، فكان يطعمها الاطعمة الغالية او يصطاد لها الغربان ، ولهذا ايضاً زاد اهل القرية في بغضهم اياه ، ولأن القطط احياناً تأكل دجاج الجيران ، فتعدو المرأة خلف القط وتقتله بلا شفقة ، وكم كنت تسمع شكايات الجيران من حمامه وقططه فيقول :

— يا لهم من اغبياء . . ! ان القطط حيوانات صيد ، حين نعلمها اصطياد الطير نربح وتربو طيورنا على المئات . وهذا يعني ان الغنى قد تسرب الى جيوبكم .

لقد تعلم الكتابة والقراءة منذ صغره ، ولكن نسيها حين كبر ولم تعد له الرغبة في فهم أحاديث خوخول . وكان يقول :

— ليس ايفان كروزني عدواً لرعاع الشعب .

كان ايزوت وكوكوشكين وبانكوف يمكثون الى ساعة متأخرة من الليل معنا ، وهم يتباحثون عن الكون وعن الحياة في البلاد النائية ، وعن الفكرة الثورية بين الشعوب . وقد أبدى بانكوف غرامه الشديد نحو الثورة الفرنسية بقوله :

— لقد سطروا بدء حياة جديدة .

-٣٣-

مهجع القسيس

طالب بانكوف حصته من إرثه من والده قبل هذه المدة بعامين . . . كان والده فلاحاً غنياً ، له عينان جاحظتان مرعبتان ، وذو نكافة في رقبته (عاهة دائمة متدلية تزن الكيلوغرام تقريباً) . يحب التلصص على اعمال زوجته ، وقد ألبسها زي المدنيات . وكلما مر والده من بيت ابنه بصق ولعنه ، وشاركه اغنياء القرية باظهار غضبهم نحو هذا الشاب ، لأنه أجّر بيته لروماس ـ عدوهم ـ ولكنه لم يأبه بهم بل وتكبر عليهم وسخر منهم . وقـــد كره حياة القرية .

ـ لو كنت اعرف صناعة ، أو ألم بعض الشيء بالتجارة لأقمت في المدينة ، وكفيتكم شري .

كان حسن البنيان والهندام ، محافظاً على مكانته ، جسوراً في لباقته ، واحياناً يسأل روماس :

ـ ماذا جعلك تتعاطى عملاً كهذا . ! أقلبـك أم رأسك أم تفكيرك ؟

ـ وأي الثلاثة تظن يا بانكوف ؟

ـ أخبرني انت ، اني شاكّ في ظني .

ـ وأيها تعتقد انه الاوفق لي ؟

ـ التفكير تفكيرك يا عزيزي ويحق لـــك الاختيار ، فأي

شيء اخترت ؟

كان خوخول عنيداً ، ومتمتعاً بذكاء راجح حتى انه يجبر السائل لأن يجيب من نفسه . وكذلك حصل مع بانكوف فتراه يجيب :

ـ بالطبع عقلك .

ـ لماذا ؟

ـ لأن هذا هو الاوفق . إذ استعمل المرء عقله فلا ضير عليه ، وسيربح لا محالة ، واذا ربح فهذا امر يستحقه كل الاستحقاق . اما اذا استشرت قلبك فيما تفعل فاعلم انه مستشار سيىء الطالع . اذا فعلت كما يأمرني قلبي فبئس الامر ، والمصائب ـ لا شك ـ عديدة وستحيط بي من كل فج . ولكنت اضرمت النار في مهجع القسيس ، ذلك المشاكس في أي امر ، والمعارض لأي مطلب وقد علمته مراراً ألا يتدخل في حادثة لا تعنيه .

كان هذا القسيس المعمر ؛ خبيث النفس ، ذاتق اللسان وجهه مدبب كوجه الثعلب ، وقد كرهه بانكوف اكثر لتدخله في شؤونه الى جانب أبيه ، واظهار عداوته ايضاً . وكثيراً ما صرخ في وجهه ، ثم عاد الى الكف عن هذا العمل ، وكنت انا ايضاً أبادله الكراهية ذاتها بعد ان احسست منه ذلك .

ـ ٣٤ ـ

يكرهون الحياة

كنا نقضي الأمسيات في الغرفة الصغيرة النظيفة ، وجدرانها الخشبية العارية ، ونوافذها المقفلة ، ومصباحها الخافت في الزاوية

نسمع حديثاً غامضاً من رجل غامض يجلس خلف هذا المصباح بلحيته المجعدة ، وهو يقول :

ـ الامر الهام والواجب على الانسان هو ان يستمر في تقدمه ، وخطأ تماماً إذا بقي كالحيوان لا يمتاز عنه بشيء .

كان الفلاحون الثلاثة يصغون اليه بعيونهم الصافية ووجوههم الطافحة بالذكاء « فايزوت » هادىء صامت يصغي ، وكأنه يسمع صدى من بعيد وكوكوشكين ينفتل بين كل آن كأنما يهاجمه سرب من البعوض وبانكوف يداعب بأصابعه شاربه الاشقر القصير في كل لحظة ، وهو يسمع ويتابع تفكيره .

أعجبتني خلة في بانكوف هي انه لم يكن قاسياً في معاملته ولا بلسانه نحو أجيره كوكوشكين ، وخصلة اخرى هي ان الانسان يجد فيه اذناً صاغية لأي امر .

وبعد حديث المساء كنت اجلس امام النافذة ، واتطلع الى القرية النائمة حيث يسود السكون ، والنجوم اللألاءة تخترق هذا السكون والظلام ، فينقبض قلبي لهذا الموقف ، لأن افكاري تتدفق وأسبح في اعماق الخيالات . إن هناك آلاف القرى كقريتنا على سطح المعمورة .

كان يغمرني هذا الفضاء المظلم فيشعرني بالتعب ، فيلاحقني كرى النوم ، والاضطراب الغامض ، اللذان يتسللان الى شغاف قلبي ... كم كنت صغيراً وتافه القيمة ؟...

وأخذت حياة القرية تبدو لي جامدة لا طعم لها مع اني قرأت في الكتب كثيراً عن ان الريف يعمل على نضوج

العبقريه . واي عبقرية تراها في وجوه لا تعرف كيف تضحك او في اجسام مريضة عاجزة !؟

ومع ان العمال في المدينة يعملون اكثر من الفلاحين الا انهم اكثر مرحاً ، ولم يشكوا من الحياة بينما يشكوها الفلاح ابداً . بالطبع لم تكن حياة الفلاح بسيطة إذ ان عليه ان ينتبه الى خصب الارض ورعايتها والى كيفية معاملة التجار .

لم اجد في اهل القرية ما يشفي غليلي ، كلهم — وهذا ما استنتجته — ضعيفو العقول يتابعون حياتهم وكأنهم في حلم طويل او كأنهم يخشون بعضهم ولا يثقون حتى بأنفسهم ، فانك ترى حياتهم مشابهة — اكثر المشابهة — للذئب تماماً ، ولم أفهم حتى الآن لماذا يكرهون خوخول وبانكوف وكل جماعتنا ، هذا الكره الفظيع ، نعم لقد صعب علي ، لماذا لا يحبون من يودون املاء حياتهم بالانسانية العاقلة .

ومن تلك الاحايين بدأت استرجع المدينة في مخيلتي وكيفية العمل المجد فيها ، وهذه السعادة الجامحة الشجاعة وخاصة اتذكر عاملين نشيطين من المدينة هما :

ف كالوجين ، وزد نيباي

مصلحا ساعات كبيرة وصغيرة مستعدان لتصليح كل الآلات ادوات جراحة ماكينات خياطة ، آلات موسيقية ، واشياء اخرى .

كانت هذه اللوحة معلقة على باب حانوت صغير بين نافذتين مغبرتين ، وخلف احدى النافذتين ترى كالوجين جالساً سمين الجسم ، مدور الوجه ، لا تغادر البسمة فمه وعلى صلعته الصفراء ورقة كبيرة

وبين يديه آلتان دقيقتان، يحرك شاربه القاسي حين يغني بفمه المستدير .

ووراء النافذة الثانية يجلس « زد نيباي » نحيف الشكل يشبه ابليس بلحيته الطويلة الرفيعة ، أنفه معقوف وعيناه مظلمتان ، وجاحظتان كالخوخ ، وهو ايضاً منهمك في عمله وتراه دائماً يلاعب اصابعه بالآلة التي امامه ، ويغني بصوت رخيم خفيض .

وخلفهما الاسلاك والأدوات والعجلات وآلات الموسيقى وكرات الارض المدرسية ، ملقاة على الارض بغير انتظام ، وتتراكم الساعات على الرفوف ، ورفاصاتها تطن بلا هوادة .

أحببت كثيراً الوقوف امام هذين الرجلين وهما يعملان طوال يومهما بلا كلل ، ولكن جسمي المرتفع العريض حال دون مرور الضوء ، فكانا ينظران إليّ بحملقة مرعبة ، ويلوحان لي ان أغرب من امامهما ، فأذهب وانا افكر بالحسد الذي يعتوريني من هذين العاملين النشيطين واقول : من حلاوة الدنيا أن يعمل الانسان ما يريد ويرغب ولعمري تلك اللحظة تكون أحلى من اية ساعة يمرح بها .

كم كنت احترمهما ، وأؤمن ايمانا وثيقاً بانهما يديران كل اسرار الحياة وكل محتويات هذه الآلات ، هذه الحياة الخاملة التي تجاب السأم لكل نشيط ، وكذلك جلبت لي . وايضاً صعب علي ، فهم عقول الفلاحين الجامدة التي لا تهتز ، والنساء لا يغيظني منهن الا الا شكواهن من أجسادهن الناحلة . . . هموم في القلب ، ثقل على على الصدر ، انكماش في البطن . . أمراض كهذه يعدونها وقتما

يجلسن على مصاطب بيوتهن في أيام الاعياد والاحاد .

كان الفلاحون عصبي المزاج ، يكفرون لأتفه الاسباب ويقذعون في كلامهم لأتفه الأمور ، فمثلاً تقاتلت ثلاث عائلات بالعصي من اجل جرة عتيقة ، لا يساوي ثمنها وهي جديدة بضعة قروش ولم ينته هذا النزاع الا حين هشمت جمجمة شاب وكسرت ذراع عجوز ، ومع ذلك فشجار مثل هذا نادر الوجود .

كان الشبان يعاملون البنات معاملة ثائرة مهيجة فحينما يمسكون باحداهن في الحقول اذ يرفعون لها ثوبها الى رأسها ويربطونها ويدورون حولها مسرورين ويسمون هذه اللعبة بالزهرة . فكانت الفتاة وهي عارية من اعلى خصرها الى ما دون ذلك ، تصرخ وتشتم ولكنها في الحقيقة تشعر بهناء حينما يمازحونها بهذا الشكل ولهذا فانها لا تعجل في اسدال ثوبها من رأسها .

وايضاً حينما يذهب هؤلاء الشبان الى الكنيسة فانهم ينهمكون بقرص الفتيات من اجسادهن البضة ومن أردافهن ولهذا السبب فقط يأتون كل مساء ، فيغضب القس ويؤنبهم من على منبره :

ـ اما كان باستطاعتكم أن تجدوا مسرحاً آخر لرذالاتكم ؟

ولقد قص عليّ روماس ان شعب اوكرانيا اطيب منا ، وكل ما يمكنك رؤيته هنا الجشع والغرائز البهيمية وكذلك الالحاد بالله وضعف حبهم القلبي له .

كثيراً ما تفاخر الشباب بسطوتهم وقوتهم ولكنهم في الحقيقة كانوا جبناء ، فقد حاولوا ثلاث مرات السطو ليلاً ولكنهم في كل مرة يفشلون ، وفي آخر مرة ضربني احدهم بعصاه على ساقي ،

فسكت قليلاً منتظراً افلات الكلمات الوافية ، نعم ان لها ارواحاً وشكوكاً .

كان ايزوف يعشق الليل وحاسته في تفهم الحب والجمال جد مدركة . فعندما يكلم احداً ينتقي الجمل الظريفة ، جمل الشاب الحالم ، المؤمن بالله الصادق في ايمانه ، رغم ابتعاده عن الكنيسة وعن طقوسها الدينية .

كان يتصور الخالق بأنه سيد الكائنات وشخص كبير السن وقور ، جميل المنطق ، عاقل ، رفيق البشر ، لا يستطيع التغلب على قوى الشر ... لا لأنه ضعيف القوى إنما لأنه لا يملك الفراغ الكافي لابعاد الناس عن الشر ولكنه سيحاول ذلك ، تريّث قليلاً تر العمل . إنما المسيح وحده الذي لا يعتقد تماماً به :

ـ لا أرى اي دخل له في قوة الله . نعم ان الله موجود وهذا يكفيني ، اما الناس فلم يكفهم ذلك ، فأوجدوا شخصاً آخر ولقبوه « ابن الله » وماذا لو كان ابنه ؟ كان يجب ألاّ يموت لأن الله حيٌّ غير زائل .

واحياناً يجلس ايزوف صامتاً ببعض تفكيره الشارد ، وبين هنيهة وأخرى كنت اسمع تنهداته :

ـ نعم ، هذه هي طريقتهم ؟ . .

ـ أية طريقة ؟

ـ لا شيء ، لا شيء بالمرة كنت احدث نفسي .

ثم يعود الى تنهداته وتفكيره ناظراً الى الغيوم البعيدة بثبات الجسور المسرور .

ـ الحياة ... انها لشيء عجاب !!..

ـ نعم انها كذلك .

كانت المياه تجري أمامنا بقوة ساطعة بألوان نهر المجرة الرائع وعلى جوانبه نجوم لامعة برّاقة كأنها طيور ارجوانية وسط السماء السوداء ، ومن بعيد اخذت الغيوم تتحلى باللون اللازوردي المنبعث من نور الشمس الباكرة ، المشتاقة الى الظهور ، ينتابها خجل عارم ، ثم ما لبثت ان ظهرت كأنها الطاووس وقد نشر ذيله وراءه عبر السماء . وبعد ان لمعت عيناه بهذا المنظر قال بابتسامة هادئة :

ـ الشمس معجزة .

فظهرت لي في تلك الآونة اشجار التفاح مزدهرة ، والقرية محاطة بغيوم وردية من فوقها ، ومن جوانبها مئات الاشجار الخضراء البراقة الازهار ، وهي تنتشر بصفوف رتيبة بين الدور وفي الحقول . فأخذ الكناري يسجع والبلبل يشدو ، والطيور تنسكب من السماء بانغامها الساذجة الغريدة ، دون ملل وبحماس العامل المجد .

في أمسيات ايام العطل كانت الفتيات والنساء ، يسرن في الشارع وهنّ يغنين بأعين خافقات بالبسمات الراضية فيحييهن ايزوف ببسمة من بسماته . وفي هذه الايام تحوّر شعوره وغرقت عيناه في هوّة غامضة . واخذت تقاطيع وجهه شكلًا اكثر غموضاً عن ذي قبل ، كان ينام طوال النهار ليخرج ليلًا الى القرية بعد هبوط المساء فيمازحه كوكوشكين بخشونة مصطنعة ، فيجيبه باستحياء :

– حسن . وماعسى المرء ان يفعل ! ؟

فيسكت ليعاود قوله ، آه ، ان الحياة حلوة فكـــربها تر حلاوتها . قد تنسى بعض الكلمات التي يقولها لك زميلك والبعض الآخر لن تنساها حتى آخر العهد بك . وعندما تنهض من الموت فهاته الكلمات اول ما تذكر من دنياك .

فقال له خوخول محذراً ومازحاً :

– انتبه ، لا بد وان يقتلك ازواجهن .

فأجابه موافقاً :

– نعم ، ولم لا ! ؟ .. إذا كان هناك من سبب .

ومع كل أمسية كان ايزوف يشارك الطيور بغنائها ، وهـو عابر السهل ثم الحقل ، يمضي على شاطيء النهر وحيـــداً فريداً . وكان الفلاحون يتغاضون عن هفواته من اجل اغنياته الرائعة .

- ٣٥ -

الهرطقي الاسود

أخذ عدد الفلاحين حول حانوتنا في ازدياد ملحوظ وخاصة في أمسيات السبت وكنت تجد بينهم دائماً سيزلوف ، بارينوف ، كروتوف الحداد ، وميكان ، كانوا يجلسون بحلقة متجاذبـــين اطراف الحديث وبين كل لحظة يترك الجمع احدهم ليحل محله آخر .

وهكذا كانت الحركة دائبة حتى منتصف الليل ، وفي بعض

الاوقات كان يأتينا الجنديّ المتقاعد كوستيل ، السكير والاعور والفاقد من يده اليسرى اصبعين .

ها هو يتقدم نحو الحانوت متبختراً كأنه ديكُ مصارعـــة وبصوت أجش كان يقول :

ــ يا لك من كافر آثم . خوخول ، نريد ان نعرف لماذا لا تذهب الى الكنيسة ، يا ايها الهرطقي المزعج . اننا بحاجة لأن نعلم من ايّ انواع الرجال انت ؟...

فيتجمع الناس حوله ويسألونه ساخرين :

ــ يا مشيكا . لماذا قصصت اصابعك ؟ . . هـل كان الاتراك يزعجونك ؟ . .

فيخوض عراكاً مع احدهم ليسرع الفلاحون لامساكـــه ويدحرجونه الى منعطف الشارع ، وفيما هو يتخبط فوق الارض يقول :

ــ العون ، العون ، باللقتلة ، باللقتلة !

ثم يعود من حيث اتى وقد تغطت ثيابه بغبار رماديّ من اخمص قدميه الى تاج شعره ، ويطلب منه ثمن القدح من الفودكا فيجيب :

ــ ولماذا ؟ وعندها يجيبه كوكوشكين :

ــ لهذا المشهد ... ألم يعجبك ؟ . .

وينفجر الفلاحون ضاحكين .

- ٣٦ -

النار الاولى

اضرمت الطاهية النار في المطبخ في صباح احـــد الايام ، وخرجت الى الباحـــة وكنت منهمكاً في الحانوت ، ولم تمض دقائق على ذلك حتى سمعنا دوياً قوياً في المطبخ فاهتز له الحانوت بأسره ، وسقطت علب الحلويات من على رفوفـه ، وتحطم زجاج الاروقة فأسرعت لمكان الدخان المتصاعد عند باب المطبخ ، ولا يزال الصفير والقرقعة يتعاليان ، فأمسك خوخول بكتفي وقال :

ـ انتظر

اقتحم روماس العجاج الفاحم الى المطبخ بينما كانت الطاهيـة تندب وتنتحب فصرخ بها :

ـ كفى عن بكائك يا حمقاء ، اعطني ماءً .. اسرعي .

كانت قطع الاخشاب المشتعلة ملقاة على الارض ، وقرميد الفرن قد تكسر من فوهته فاخترقت الدخان الى مكانه ، وقذفت به على النار وبعدئذ اخذت اعيد الخشب الى الفرن . قال خوخول :

ـ كن حذراً يا مكسيميتش .

وأمر الطاهية :

ـ اذهبي واقفلي باب الحانوت .

ثم اردف : احذر يامكسيميتش أخشى ان يكون في النار بقية من المتفجرات ، وجثا على ركبتيه ، فاحصاً قطع النـــار بدقة وأخرج من الفرن كل الخشب الذي كنت قد وضعته فيه

وسألته :

ـ ماذا تعمل يا خوخول ؟

ـ انظر الى هذا . . .

فمد الي قطعة حديد مثقوب وسطها وجدرانها الداخليـــة سوداء :

ـ أرأيت ؟ أحد الشياطين قد ملأ هذه الحديدة بالبارود . . يا للحمقى ، أيّ شرٍّ يمكنكم ان تفعلوه بهذا البارود !. .

ورفع الحديدة بعيداً واقبل الى الماء يفتش وهو يقول :

ـ من حسن الحظ ان اكسينيا ، كانت خارج المطبخ والاّ كانت اصيبت بأذى .

انقشع الدخان تماماً ، فلحظت ان الاطباق على الرفوف قد تبعثرت وزجاج النوافذ قد حطم ، وبضع قرميدات قد سقطت من فوهة الفرن . لم يؤثر هذا الحادث على خوخول ايّ اثر ، حتى انه ظنها العوبة سخيفة لم ينجح لاعبوها . ومن النافذة لمحت الناس في تراكض وهم ينادون :

ـ النار ، النار . . ان بيت خوخول يحترق .

فولولت اكسينيا وصرخت بهلع :

ـ انهم يقتحمون البيت يا ميخائيلو انطونوفيتش !

ـ صه ، اني آت .

وجوه مشعرة ، لواها الخوف والقلق ، أخـذت تحملق الى داخل البيت من النوافذ المفتوحة . فصرخ أحدهم :

ـ اقذفوهم الى خارج القرية . اننا لا نجد نهاية لشرورهم .

وحاول رجل قصير ، ذو شعر رملي ان يدخل من ثنـــايا النافذة ، وكل مرة يفشل فيتمتم بأصوات غير مسموعة . فقال له روماس :

ـ ماذا تعمل يا هذا ؟ . ولم تحاول تسلق النافذة ؟

ـ لأ طفىء النار .

ـ لا يوجد نار ، ولا حتى ضرم .

فاختفى الرجل القصير ، وخرج روماس الى الجمهور مـــن الحانوت وقال لهم بصوت جهوري :

ـ لقد أخطأ الذي حشا هذه الحديدة بالبارود ، اذ لم يضع فيها البارود الكافي ليؤتي أكله .

كنت واقفاً الى جانب خوخول اتطلع الى الجمهور ، وبـين الجمع لمحت فلاحاً شاباً ممسكاً بفأسه ، كان يبدو خائفـــاً ، وهو يقول لأحد جيرانه :

ـ لم تنجح في قذف البارود . .

وتقدم الجندي كوستين المخمور دوماً وقال :

ـ أخرجوه ، يا له من هرطقي . . خذوه الى المحكمة .

ولكن الناس ظلوا صامتين ، يستمعون الى روماس بانتبـاه تام ومكر باطن عندما واصل كلامه :

ـ لنسف بيت عليكم بوضع بارود أكثر من الذي وضعتموه ، لماذا أنتم هنا الآن ؟ . . ارجعوا الى بيوتكم .

فتعالت الأصوات :

ـ خذ حذرك

ـ اين الاشتراكية ؟

وذهب الفلاحون كل الى سبيله ببطء وخيبة امل مرسومة على وجوههم . فدخلنا البيت ، وصبت اكسينيا لنا الشاي . ولم ارها قط قبل الآن بهذا الاخلاص وهـذا اللطف . وقـــالت لروماس بحنو

ـ انك لا تحتج أبداً ، ولذا يتجاسرون عليك ، ويلعبون معك هذه الألاعيب .

وسألته :

ـ ألا يغضبك ما فعلوه ؟

ـ ليس لدي الوقت الكافي لأن اغضب ، ولا تتحمل نفسي كل تفاهة سخيفة .

ففكرت أنه لو كان كل امرىء برباطة جأشه ، لعاشت البسيطة حياة رغدة . ولم أبحر في تخيلاتي كثيراً إلا وسألني عن الكتب التي أرغبها من قازان ، لأنه مزمع على الرحيل اليها لأيام قلائل .

كان يبدو لي ان هذا الرجل تحركه أيدٍ خفية ، وانه مثـل الساعة في عمل متواصل طالما رفّاصها مستقيم . لقد أحببته واحترمته كثيراً ، وكم وددت يوماً ان اراه غاضباً يصرخ بهياج ويضرب الارض بقدميه أكان لي أم لغيري ، فقط حتى ألحظ تجعـــدات جبينه وخلجات فؤاده .

ولكنه لم يستسلم للغضب يوماً . وحين يريد ان يغضب تضيق عيناه ، وينفرج فمه عن بسمة ساخرة ، ويقـــول كلمات قصيرة ومقتضبة ، قاسية بلا رحمة . وسأل مرة سوزلوف :

– ما الدافع الذي يجعل نفسك بهذا الخبث ، وانت رجل قد قطعت ملاّ من العمر ؟

فاحمر وجهه ، حتى ان لحيته البيضاء بدت للعيان كأنها حمراء. فأضاف قائلاً :

– ان هذا لا يفيدك يا عزيزي . ولكنك تجبر الناس على ألا يحترموك .

فأومأ سوزلوف برأسه ، مقراً رأيه :

– نعم ان هذا صحيح ، وانه لا يفيدني شيئاً .

وباختصار ووضوح شرح لي روماس كيف يجب أن أقوم بأعماله اثناء غيابه وظهر لي انه نسي – كما ينسى المرء لدغة البعوض – صباح الانفجار ، ومحاولة ارهابه . ودخل بانكوف وفحص الغرف ، وسأله :

– هل تأثرت كثيراً ؟

– مم ؟

– من ثورة البارحة .

– .. هلا تناولت معنا بعض الشاي .

– ان زوجتي تنتظرني ..

– وأين كنت ؟

– أصطاد اسماكاً مع ايزوف .

واستأذن . وفيما هو خارج ماراً بباب المطبخ قال :

– نعم .. انها الثورة !

- ٣٧ -

القيصر الجزار

من عادة بانكوف ان يبخل في كلامه عندما يكلم خوخول ، كأنما يتكلمان عن امر يعرفانه من امد بعيد . ولما تكلم روماس عن قصة القيصر « ايفان كروزني » تذكرت قول ايزوف :

– انه قيصر مل .

وأضاف كوكوشكين الى هذا اللقب :

– وجزار ايضاً .

وقال بانكوف بكثير من الاعتقاد واليقين :

– لم يعمل بحكمة منذ بداية حكمه ، وما الجدوى اذا قتل كل الامراء العظماء ، وربى شرذمة كبيرة من النبلاء الصغار ؟ او استوزر بعض الاجانب؟ لا يوجد أي تفكير صحيح في اعماله. ان الغني الصغير أسوأ من الكبير ، كما ان الذبابة تختلف عن الذئب . بامكانك قتل الذئب بالبندقية ، ولكنك يستحيل عليك ذلك حين تزعجك الذبابة .

وأحضر كوكوشكين معه بعض الآجر ، وثبتـــه حول المدفأة وقال :

– لم يعملوا بتفكير هـــؤلاء الملاعين . انهم لا يستطيعون استخلاص الصئبان من ألبستهم فكيف يعملون هذه الاعمال ؟.. ولكنهم ان قرروا قتل رجل فلا يمنعهم رادع .عليك يا أنكلو ينتش ان تقلل من البضائع ،وان كثرت اسفارك ،ولربما اضرموا النار

في المكان الذي وضعت فية بضائعك . والاضطراب حاصل لا محالة طالما انك تزعج اغنياء القرية بتأسيس الجمعية التعاونية لمزارعي اشجار الفاكهة الصغار .

استطاع روماس مع بانكوف وسوزلوف وثلاثة من المزارعين الصغار ان يرتبوا الجمعية . واصبح معظم الفلاحين الصغار يميلون اليه . وقد ازداد عدد الزبائن في الحانوت ازدياداً محسوساً ، حتى ان بارينوف وميكان العديمي الفائدة كانا يفعلا جهد استطاعتهما لمساعدة خوخول .

كان ميكان يجذبني نحوه بأغنيانه الحزينة الثائرة ، التي تذهب الى قلبي وتحرك أنونه ، وعندما يغني يقفل عينيه . انه يحب الليل ، وان لم يكن في السماء قمر ، او حجبته الغيوم بستارها . وكان يهمس بأذني احيانا في المساء :

ـ تعال معنا الى الفولغا .

ـ ٣٨ ـ

المغني الشاعر

حين اقتربت الى ضفة الفولغا مساء وجدت ميكان جالساً الى جانب فلكه ، وساقاه تحركان الماء بعدم اكتراث ، فقال لي بهدوء ظاهر :

ـ حين يعاملني الاغنياء معاملة قاسية أتحملهم مكرهاً وصامتاً ، أما عندما يشاكسني الفلاحون أمثالي ، فكيف أصبر؟ . . .

ان السيد المحترم يعرف اشياء لن اعرفها ما حييت . اما شبيهي فأي فرق بيننا ؟ . . انهم يحسبون أموالهم بالملايين وأنا أعدها بالملاليم ، وهذا الفاصل الذي يحدني عنهم .

انهم يدعونني باللص ، فأي انسان لا يسرق ! كلهم يعيشون من خيرات السرقة ، ألا يحاول كل انسان أخذ مال أخيه بأية وسيلة كانت ؟ . . هذه سنة الكون . الله يحبنا ويفضلنا ، وكذلك للشيطان سبله ومهالكه .

كان الظلام حالكاً حتى اننا ما استطعنا مشاهدة معالم الضفة الثانية . فأضاف ميكان متنهداً :

— وعلى الرجل الثبات في الحياة . أليس كذلك ؟

فتساءلت عن طريقة حياته ، وهل يجب ان أماثله بها ؟ وتابع تفكيري عواء كلب حزين ، أضناه الجوع والنصب . ثم عاد ميكان الى كلامه :

— وسيقتلون خوخول ، وكذلك انت .

ثم قطع حديثه فجأة ليغني بصوت خفيض ساج :

« قالت لي أمي بنظرة حنونة

قالت لي امي . . . »

« يا ياشا ، ياروحي العزيزة . . اتبع طريق الهدى دوما »

« ولكني ما أحببت هذه الحياة

آه . . ابداً ، أبداً . . . »

شعرت بشعور المنسجم ، فترنحت في مكاني ، وظننت ان الارض تميد من تحتي . . وفجأة قطع الاغنية كما بدأها ، ثم شد

قاربه الى الشاطيء وعبره واختفى فيه دون ان يتفوه بكلمة . فعجبت من هذا النوع من البشر ، وكذلك لوجودهم في هذه الحياة ! . . .

- ٣٩ -

ثورة على القيصر

كان بارينوف صديقاً آخر لي ، متفاخراً بكذب ، كسولاً ما عدا نقل الاخبار ، لا يستقر بمكان قام فيه اكثر من ليلة . أقام مدة يسيرة في موسكو ، فتحدث عنها كثيراً . إذ يقول باشمئزاز:

– انها مدينة الشيطان بنفسه ، الهباط والمباط يعكـــر جو شوارعها ، وكذلك الكنائس ، فترى فيها أربعاً وستين الفاً – او يزيد – منها ، وشعبها لعين نمام ، تجـار وجنود ومدنيون . تجدهم هنا وهناك يحاولون اختلاس اي شيء . رغم ان في عقبيهم مدفع القيصر بطرس الاكبر الذي ضرب الشعب به .

قامت عشيقة القيصر بثورة ضده استفزت بها افئـدة الشعب لانه هجرها بعد سبع سنين ، تاركاً لها ثلاثة اطفال يبيتون على الطوى ، فغضب وصدهم بمدفعه فاقتطف من الارواح ثمانية وثمانمائة وتسعة آلاف . وليس الشعب وحده قد خاف ، انما القيصر نفسه هلع قلبه حينما سمع بعدد القتلى . إذ قال لرئيس الاساقفـــة « فيلاريت » :

– يجب ان نختم المدفع ، لأنه لعبة ابليس . وهكذا ختموه .

وعندما أخبرته ان القصة ليست الا شعوذة فارغة وغضباً مزمجراً قال :

– انك لا تميل الى مثل هذه القصص . كيف تكذبها وقد سمعتها من رجل عالم ؟ . .

ومن سفرته الى كييف لزيارة القديسين قال :

– ان كييف تشبه قريتنا تماماً . . على هضبة ، والى جانب نهر لا أذكر اسمه لأنه عبارة عن جدول صغير ، وهو بمثابة فرع للفولغا . واستطيع ان اثبت لك ان هذا الشعب كله يشبه ، في عقائده ، خوخول ، مع انهم من اصل مختلف . منهم بولونيون ومنهم تاتار . شعورهم مشعثة دوماً ، وطعامهم الضفادع التي تزن الواحدة خمسة كيلوغرام . وعندهم ثيران عجيبة ، واصغرها يعادل اربع ثيران من عندنا . . وفي بلدتهم سبعة وخمسون الف راهب ، ومائتان وثلاثة وسبعون اسقفاً . واعتقد انك لا تصدق ذلك . . وكيف يمكنك تكذيبي وقد رأيتهم بأم عيني ؟ . . وانت ، أذهبت الى هنالك ؟ . . كل الارقام التي سردتها صحيحة تماماً .

بالفعل كان صاحبنا يعشق الارقام ، لذا فاني علمته الجمع والضرب اما القسمة فصعب عليّ تعليمه اياها لأنه لم يتحملها قط . وكان يشير بعصاة صغيرة على الرمل فيضرب ارقاماً ضخمة ، ولا يهمه أكانت صحيحة ام خطأ . ولما ينتهي من عمليته كان ينظر باعجاب الطفل الساذج ويقول :

– من المستحيل عليه قراءة مثل هذا العدد !

كان بارينوف غير مهندم الشكل ، له عينان زرقاوان تضيئان وجهه الجميل برقة وعذوبة . أما من حيث الاخلاق والعادات ، فهو في تشابه تام مع كوكوشكين واعتقد ان سبب تناحرهما وخصامهما هو هذا التشابه ، وقد ذهب مرتين الى بحر قزوين ، فكان يقول عنه :

ـ البحر يا أخي ، بالهوله وجبروته ، اذا وقف انسان على الشاطيء ، وفكر بدراسة عميقة عن عظمته ، لشعر انه لا يعدو الجرثومة .

ثم يسكت ليعاود كلامه في تساؤل :

ـ ما انا من حلاوة الدنيا هناك ، كل اهل المدينة يبقون الساعات الى جانبه للبذخ . حتى ان قسيساً شاباً يشاركهم هذه المتعة ، واعرف طباخة هي خليلة موظف . بأمكان اي انسان ان يجد مرضاته هناك ، وماذا احسن من ذلك ؟ وقد قالت الطباخة مرة للموظف :

« أنت ظريف يا موظفي ، وأحبك بل أعبدك . ورغم ذلك أقول ... الوداع . لان الانسان الذي يرى البحر اول مرة يعود اليه حين يدعوه الداعي مرة ثانية . هذا البحر كالسماء ، فضاء واسع هادىء ساكن .. سأذهب الى هناك ، وأخوض امواجه ، لأبقى بين طياته ، لأني اذنبت في حياتي . كان يجب ان ارتحل الى الدير في اوائل عمري متنسكة . ولكن ، أي دير يليق بي !.. »

كان يسير في القريه كالكلب الشريد ، بين احتقارات الفلاحين

واستهزاءاتهم ، ومع ذلك فانهم يسمعون قصصه بلذة شيّقة ، وبعد هذا يقولون :

ـ يا له من كذاب ماهر !.. لا بأس به ، انه مسلّ .

وبامكانه ان يجذب بأقاصيصه كل من اراد ، حتى الفلاحين المفكرين أمثال بانكوف الذي قال لخوخول يوماً :

ـ ان بارينوف يخطىء في زعمه ، من ان الكتب لا تقول الحقائق عن كروزني ، وتخفي حياته ، وقد قال بأن كروزني ليس بالرجل ، انما قد يتحول يوماً الى نسر قشعم ، ولهذا ترى نقودنا مرسوماً عليها صورة نسر اكراماً له وتبجيلاً .

لاحظت ان الشعب هنا يعلق بالامور الغريبة ويهمه امرها ، وعندما أثبت هذه الفكرة لخوخول ابتسم وقال :

ـ مهما يكن من امر . الذي اريده من الشعب هو ان يتكلم عما يرتأي ويفكر ، وبعدها سيتعلمون من انفسهم طريق الحق . اما امثال بارينوف وكوكوشكين فعليك ان تفهمهم تماماً . انهم فنانون وعباقرة . والسيد المسيح يشبههم بما أربه من هذه الحياة الغاية الانسانية المثلى .

الامر الذي حداني لأن ادهش ، هو امثال هؤلاء العباقرة يتكلمون بالكاد عن الله وخلقه ، وان تكلموا فبرغبة طفيفة . وسيزلوف المسن احدهم الذي يقول باعتقاد تام :

ـ لا يصيبنا الا ما كتبه لنا .

كنت سعيداً بينهم ، وإن شعرت بيأس طغى علي جلّ حياتي ، لاني استطيع التعلم من تفكيرهم الفياض الشيء المزيد . وكل قضية

يتحدث عنها روماس اتخيلها جذر شجرة ميلاء شجراء ، وتمتد جذرها ويتفرع ، واحياناً يتعانق بجذور اخرى ، ولكن في الاخير تبقى شجرة واحدة ، وقضية واحدة ، وإن كانت فارغة بالمعاني .

وطالما شربت من رحيق الكتب الريان ، وتقدمت بتفكيري تقدماً محسوساً ، وحين أبدأ بالمناقشة أشعر بالثقة تعتوريني وكثيراً ما امتدحني خوخول قائلاً :

ـ اني اتحسس التقدم يا مكسيميتش .

ولكم فرحت من هاته الكلمات المقتضبة والمشجعة .

وكان بانكوف يزورنا ومعه زوجه ؛.. وجهها صغير ضيق ، ثيابها ثياب حديثة مدنية ، وعيناها زرقاوان تسطعان ذكاء وحيوية ، تجلس بهدوء وسكينة في زاوية الغرفة صامتة . تحاول جهدها فهم ما نتحدث به ، وتنفجر ضاحكة ، وتخبيء وجهها بكفيها ، اذا كان هناك ما يضحك ، فيغمز بانكوف لروماس ويخبره بانها تفهم ما نعني .

ـ ٤٠ ـ

قضية سرية

يزورنا رجال حذرون ، ويجلسون في غرفتي ساعات طويلة ، وقد ينامون عندنا ، ولا يعرف احد بوجودهم إلاّي وأكسينيا ، أذ كانت وفية لروماس ، وصادقة بخدمتها الى درجة العبادة . وكان

ايزوف وبانكوف يرافقان الزوار ليلًا الى احد القوارب البخارية اما انا فاني ارقب القارب وهو يأفل، ويمحّي أثر مصباحه المتأرجح، فكنت أشعر أني مشترك في قضية سرية خطيرة .

- ٤١ -

ماريا الجميلة

من الاخبار سمعت ان ماريا دورينكوف قد تركت المدينة، فرحت فجأة في بحر من الخيالات .. اذ اني لن اشعر بعد اليوم اليوم بنظرتها الدافئة المضطربة ، التي كانت تبثها بي بعينيها البسيطتين السعيدتين ، وهي فتاة مسرورة ، او أضحت الآن مسرورة لان صديقها الكبير ذا اللحية الكبيرة اخذ يهتم بها . ويحدثها بنفس اللهجة الساخرة الهادئة التي يوجهها للآخرين . كان يربت على لحيته اكثر حين يصدقها ، ويلمع في عينيه بريق السعادة والخجل ، اما هي فان صوتها الكناري المرح يدوي في اذنيه بدلال ، ويديها البضتين تتحركان دوماً بخفة كأنما تبحث عن شيء في الهواء ، بثوبها الأزرق الفاتح والمسحة الخجلاء تلمع على وجهها الوردي . وقد حاولت رؤيتها كثيراً لرغبتي في ذلك .

- ٤٢ -

موت ايزوف

في اواسط تموز اختفى ايزوف ، فتساءل الناس :

— هل يكون قد غرق ؟..

– من الممكن ذلك ..

ثبتت هذه الفكرة عندما وجدوا بقاربه ثقباً مهشماً . ومن الممكن ان يكون قد غفى ، فقذف به التيار وحدث ما حدث . كان روماس في قازان وقت حدوث الفاجعة . وجاء كوكوشكين بعد الأصيل الى الحانوت ، ورمى نفسه على كومة من الأكياس الفارغة صامتاً بيأس وحزن ، وسألني وهو يحملق بالارض :

– متى يعود خوخول ؟

– لا أدري .

فوضع يده على خده ، وما لبث ان داعب ذقنه بها ، وهو يشتم ويقذع في السباب ، فسألته :

– ما سبب غضبك ؟..

فنظر إلي وعض على شفتيه ، وكانت عيناه محمرتين ، وذقنه ترتجف ولكنه لم يستطع ان يتكلم ولا بنبسة . فهمت من نظراته ان الأمر ليس بالهين ، واخيراً وبعد جهد مكبوت احتمله طوال الوقت قال :

– ذهبت وميكان لنفحص مركب ايزوف ؛ كان الثقب في قاعه يدل على انه حطم بفأس ، وقـــد قتل ايزوف ، وهذا أمر لا مراء فيه .

ثم ما فتىء ان عاد الى سبابه المقذع يلعن الفاعلين ، ويقطعه نحيب جاف ، جرى من مقلة منهكة . كل جسمه كان يرتجف ويئن من الغضب . أراد ان يبكي ، ولكنه لم يجد للدمع مسيلًا . وفجأة نهض وقفل راجعاً .

وفي المساء الثـــاني ، كان بعض الصبية يلعبون على شاطىء النهر ، اذا بهم يجدون جثة ايزوف ، ممددة على وجهها . والجمجمة قد خلت من دماغه فغدت فارغة من ضربة خلفية بفأس صغير . كان التيار يحرك له قدميه وذراعيه حتى لتظنه يحاول الخروج من الماء . فاجتمع نفر من الفلاحين حول الميت يربو عـــددهم على العشرين ، كان هؤلاء أغنى اهـــل القرية ، لأن العمال ما زالوا في عملهم في الحقول . كان كوزمين واقفـاً ، وساقاه منفرجتين ، وبطنه متدلية الى الامام ، يحملق بي آناً ، وبكوكوشكين آناً آخر . وتكلم بحرقة :

– يا لها من فاجعة ، هذه الروح الطيبة !

ثم اقبـل القرويون وكأن على رؤوسهم الطـــير ، حزنين لا يتفوهون بحرف مفيد . واخذوا يتحاورون :

– كان مزعجاً . .

– من ؟ هو ؟ . .

– نعم الأمر مزعج .

– رجل مقتول بلا سبب .

– لم يوذ انسياً .

– نعم ، لم يغضب أحداً قط .

– إذن لماذا قتلتموه ؟ لماذا قتلتموه يا مناكيد ؟ . .

لم يصرخ كوكوشكين قوله الأخـير ، حتى انفجرت امرأة ضاحكة ضحكة هستيرية ، وكان صراخها كـــأنه السوط فوق أكف الجماهير . ثم أخذ الفلاحون يتبادلون النظرات الغـــاضبة

والتفت كوكوشكين وضرب كوزمين على بطنه ، كأنه يقلد من يضرب على طبل وقال له :

– يا للحيوان !..

وشق طريقه الي بقبضتيه وقال بكثير من المرح :

– اخرج من هنا ، لقد توقدت حميتهم .

لقد سبق وضربه أحد ، فشق له شفته وأدماهـــا ، ولكن وجهه ظل طافحاً بالسرور . ثم قال بصوت عال :

– هل رأيتموني كيف اني ضربت كوزمين ؟..

وبنفس اللحظة جاء بارينوف ليقترب من كوكوشكين بين زحمة المتجمعين . أما أنا فقد سبحتْ جثـــة ايزوف في ناظري ، وتحركت باهتزاز الماء ، بل ونهضت لتسير فوق تيـــار النهر ، فعاودني قوله ... « يكون الطفل في اعوامه الاولى كالعجين يقبل العرك ، وسجيته تلصق بها كل ما يحلو لها ، فعلينا كسب هـذه الميزة الرائجة فيه حتى ننميه كيف نشاء . وأحياناً تكون طبيعة الانسان وهو رجل تشابهها وهو طفل . خذ مثـــلاً خوخول ، بأمكانك القول بأنه انسان مجبول بالحديد ، ولكن روحه روح طفل سادج بريء ».

فتقدم كوكوشكين مني وقال لي بهمس :

– المنية اقتربت منا . انهم سيتخلصون منا بنفس الطريقة التي عاملوه بها .

- ٤٣ -

غرام في الخريف

عاد خوخول بعد يومين او ثلاثة في ساعة متأخرة من الليـل فأقبل على هاشاً مسروراً وقال :

ـ انك لا تنام كفاية يا مكسيميتش !

فأجبته دون ان أعيره التفاتاً :

ـ لقد قتل ايزوف ..

ـ يا الهي ، ماذا اسمع ؟ .. !

تحركت عضلات وجهه باشكال مضطربة ، واخذت لحيتـه ترتجف كأنها الشلال يريد ان ينحدر على صدره . فوقف وسط الغرفه ناسياً رفع قبعته اجلالاً وقال :

ـ وطبعاً القاتلون مجهولون !

وتقدم ببطء وجلس ، مادّاً قدميه بتعب وقال :

ـ كثيراً ما حذرته ... أجاء رجال الامن ؟..

ـ اقبل رئيس الشرطة البارحة .

ـ وما قال في ذلك ؟ .. بالطبع لا شيء .

فأخبرته ان رئيس الشرطة وقف عند حانوت كوزمين ، كما كان يفعل دائماً ، وأمر بأن يسجن كوكوشكين لضربه الحانوتي. فذهب الى المطبخ واعدّ الشاي . وفيما نحن نشرب قال :

ـ كلما كان الانسان حسن الحال يخشونه اكثر ، ويقتلونه بهذه القساوة . عندما أخـذوني أسيراً الى سيبيريا تعرفت على لص .

فاخبرني أن جمعيته عصابة منظمة عددها خمسة فقط ، وحين اجتمعوا مرة قال احدهم : « ما الجدوى من السرقة يا اصحاب؟ انها لن تفيدنا ولن تفيدكم » لذا خنقه ، ذلك اللص ، عندما كان نائماً . وقد قال : « لقد أجرمت عدة جرائم بعد ان قتلت هذا الصديق الطيب والماهر » . وعندما سألته عن سبب قتله الرجل ، أكانوا خائفين من ان يخونهم ؟ فأجاب : « انه ما كان ليخوننا قط ، انما لم نحب ان يكون بين الخاطئين قديس ».

ثم نهض خوخول ، واخذ يذرع ارض الغرفة ، وغليونه بين اسنانه ، واخذ يتحدث بهدوء :

ـ كنت أخشى دوماً قتل اطيب الناس الذين يفنون لخدمة الشعب . فيسلك الناس احد طريقين ، للتخلص منه . إما لأنهم ملوا سماعه وتوبيخه ، او انهم يعملون بما يشير عليهم لسان الاعداء ، فيزحفون على بطونهم بتؤدة قصدهم التخلص منه وقتما يحين الاوان.

ثم اخذ كأساً من على الطاولة ، واتبع كلامه : عندما يعيش افراد الشعب حسب مبدأ قدخطوه لانفسهم ، ويأتي مصلح يعارضهم فيه ، فانهم ، بكل تأكيد ، يشاكسونه :

ـ ان حياتكم غير صحيحة .

ـ غير صحيحة ؟ وكيف ذلك ؟ لقد وضعنا كل ما في وسعنا في هذه الحياة ، أغرب عن وجهنا لا نريد نصائح باطلة ؟

وهكذا يثورون ضد هذا المعلم وضد هذا القديس :

ـ دعنا لوحدنا

واذا كانت الحياة ، بطبيعتها ، تنتقل من الجيد الى الاجود ،

ومن الحسن الى الافضل ، فانه من الواجب عليهم اتباع هـــذا المصلح .

واشار الى الكتب ، وأضـاف : آه لو استطعت ان اكتب كتاباً عن هذه الحياة ، ولكني لست اهلاً لهذا ، ان افكاري غامضة ومتطرفة .

ثم احنى رأسه على يديه ، وجلس على طرف الطاولةواردف : وكيف يمكننا نسيان ايزوف !.. اظن انه يجب ان نذهب الى فراشنا يا مكسيميتش .

فصعدت الى غرفتي وجلست الى جانب النـــافذة . كانت الكلاب تنبح في الحقول وتعوي ، ولولا اصواتها لظن المرء نفسه يسبح وسط جزيرة عائمة . وفجأة طن الرعد من الافق ، وموجة من الحرارة طغت على الجو .. شاهدت خيال ايزوف مستلقيـاً هناك ؛ على شاطيء النهر تحت دغلة اشجار القصب ، وجهه المزرق يساعد النجوم في النور ، والعيون الجامدة تسبح في السماء باحثـة عن لا شيء ، ذقنه الذهبية قد تلبدت وتلملمت ، وفمه مفتوح كأنه فم مذهول ، وسمعته يكلمني :

ـ العطف يا مكسيميتش ، العطف والوفـاء أهم الامور في الانسان . ولهذا فاني احب عيد الفصح كثيراً لان المرء يتصـافى فيه مع صديقه .

سرواله الأزرق قد جف من شمس المساء ، فظل ملصقـــاً بساقيه المغسولتين بماء الفولغا ، والذباب يلتصق عـــلى وجهه في ازدحام ، وينضح من جسمه رائحة مستكرهة .

سمعت خطوات ثقيلة على السلم، وظهر بعدها روماس،وجلس الى جانبي ، وامسك بلحيته وقال :

ـ اريد ان اخبرك اني على وشك الزواج .

ـ ولكن ليست حياتك مستقرة لتعيش مع امرأة !

ـ اني مزمع على الزواج من ماشا دورينكوف .

لم أستطع ان اخفي ابتسامة ذات عدة معـــاني ، اذ اني لم افكر قط بأن اسم هذه الفتاة كان ماشا ، حتى ولم اعلم أن احداً من ذويها قد لقبها بهذا اللقب اللطيف الناعم ، فمن الممكن ان يكون هو المتطوع لهذا اللقب لحبه لها وتقربه منها . وسألني :

ـ فيم تفكر ؟

ـ في .. لا شيء .

ـ او تظن ان عمري لا يسمح لي بالتقرب منها .

ـ لا لا.. لم اقصد ، انما يعني .

ـ لقد قالت هي نفسها بانها تحبني . وكذلك بانك كنت تحبها!

ـ اظن ذلك ، اظن اني احببتها يوماً .

ـ والآن ، هل انتهى حبك لها ؟.. هل جف نبع الحب عندكما .؟

ـ بلى ، قد انتهى وجف .

ـ ... كل اطوار الشباب تبقى مضطربة في سن المراهقـة ، فيرى الشاب أنه مغرم بتلك ، ويحب اخرى ، ويميـل الى ثالثة . وحين تسمع ان احداهن قد انساقت في طريق الزوجيـة تحزن وتقول ؛ يا ليتها لك ، ومن الاجدر بها ؟.. انا الذي احببتهـــا

اكثر من الجميع . ولكن بعد مدة تسلوها بغيرها ، وتنظر اليها ـ إن وجدتها ـ نظرة عطف واحترام .

ثم ابتسم ابتسامة بعد هدأة من السكون ، وتابع : نعم .. لقد خسر انطونيو معركة أكسيوم امام اوكتـــا فيوس لانه أهمل اسطوله وواجباته كقائد ، وأدار حيزوم سفينته تجـــاه كليوباطرا الملحق بها . وهكذا يمكنك ان تعرف تأثير الحب على الانسان وكيف يمنعه من التفكير الصالح ، ويرميه في وهاد لا قرار لها . وعلى كل حال ، انني قررت الزواج ، ولن احيد .

ـ ومتى سيكون القران ؟

ـ في الخريف ، عندما ينتهي موسم التفاح .

انهى جملته الاخيرة وخرج ولم يعد ، فعـــدت الى سريري ، غارقاً في خضم من الاحداس ووصل تفكيري الى اني مـن المحتم علي أن أغادر هذه القرية قبلما يقبل الخريف ، ويحدث ما يحدث ، واشهد ما اكره .

ـ ٤٤ ـ

النار الثانية

في فجر يوم من أيام شهر آب قدم خوخول من قازان ، جالباً معه بضائع كثيرة ، وبعد ان اغتسل جلس ليحتسي الشاي معي ، وقال بسرور :

ـ كم هو جميل التنزه على ضفة النهر ليلاً !

ولم يأخذ في جلسته لدقائق معدودة حتى اظهر اهتماماً في شمه عبير الهواء ، ثم قال بقلق :

ـ ألا تشم رائحة دخان ؟

ولم تمض لحظة حتى ولولت اكسينيا في صحن الدار :

ـ النار ..

فانطلقنا خارجين لنرى الخطب ... كانت الحظيرة تلتهب ، وفيها كل مؤونتنا من فحم وزيت وكاز . فوقفنا مذهولين نمعن النظر في النار . وأمسك خوخول بيد اكسينيا ، حين مرت ومعها علبة الماء ، وقال لها :

ـ لا جدوى من الماء ، اسرعي الى الحانوت ، وانت يامكسيميتش حاول ان تخرج براميل الكاز .

وقذفت باحد البراميل الى الخارج ، وأمسكت بالآخر لألحقه بالأول وإذ بسدادته تنفلت من مكانها ، والكاز ينكفت على الارض . وفيما كنت ابحث عن الغطاء ، تسللت السنة النار حتى وصلت الى الجدران ، فأخذ السقف يتململ ، وأزيز النار يصلُّ اذني . وعندما خرجت شاهدت نساء واولاداً تجمعوا حولنا يندبون . وفي وسط الشارع لمحت امرأة شيخة مرتدية ثوباً اسود ، تهز قبضتها وتصرخ :

ـ الآن يا عفاريت .. ما رأيكم ؟..

وعندما عدت الى الحظيرة رأيتها قد امتلأت بالدخان الاسود الكثيف ، ولم يبق من الحائط غير شعلة نارية تتحامل للثبات ولا بد لها من السقوط . ومع ان الدخان غمر المكان ومنعني من النظر ، الا اني دحرجت برميلاً ولكنه التصق بمزلاج الباب ولم

يتحرك ..

اخذ السقف يمطرني بوابل من الشرر المتطاير يلذع به وجهي وجسمي ، فاستغثت طالباً النجـدة ، واذ بخوخول يخرجني الى الباحة ويقول :

– أسرع قبل ان ينفجر برميل الـكاز .

وانطلق الى البيت ، وتبعته داخـلاً غرفتي كي انقذ كتبي ، ورميتها من النافذة ، وحاولت قذف صندوق القبعات ايضاً ، ولكن النافذة كانت ضيقة جداً ، ولم احطم زجاج النـــافذة واطارها الا وسمعت دوياً أصم أذني ، أعقبه ارتطام شيء كبير على السقف ..

كان برميل الـكاز قد انفجر ، فالتهمت النار السقف ايضاً ، ووصل اللهيب الى غرفتي ، فاصبحت الحرارة لا تطاق ، فأردت الهرب من السقف ،ولكن الدخان أضلني فاندفعت عائداً الى غرفتي ووقفت حائراً بينما اسمع طقطقة الجدران والسقف وقد قاربت من السجود ، فشعرت ان شعر رأسي يحـــترق ، وان الدقائق أضحت اعواماً ، فيئست من النجاة وخارت قواي ، ونحرقت عيناي فحاولت حمايتها بكفي القذرين . ولكن غريزة حب البقاء جمعت علي بعض الحكمة ، فالتففت بفراشي ، وبألبسة روماس وقذفت نفسي من النافذة الى الشارع . ولم أعِ الا حين شعرت ان روماس الى جانبي يوقظني ، فسألني :

– هل انت بخير ؟

ودون ان اجيب جلست واخذت أحلق – بألم – الى بيتنـا

كانت ألسنة النار كأنها الجداول المائية تتدفق ، اوألسنة الكلاب الجائعة تلعق ما تصل اليه ، ويخرج من النوافذ دخان اسود ، فصرخ خوخول مرة ثانية ، لما لم يحظ بجواب مني :

– هل انت على مايرام ؟

بوجهه المغطى بطبقة من البقع السوداء ، المخططة بعرقه السائل وعينيه المحمرتين المنتفختين ، ولحيته المعلق عليها رماد النار .

وبعد ان تفحصت كل ما امامي شعرت بألم شديد في ساقي اليسرى وتحاملت على روماس واخبرته ان ساقي قد خلعت من ركازها . فمد يده الى ساقي دون ان يكلمني بحرف وسحبها سحبة أحسست معها بموجة من الالم قدطغت على كل ذاتي ، وبعد بضع دقائق اخذت اسير بعرجة خفيفة ، وانا اشعر بسعادة لا تدانيها سعادة ؟ اذ كنت استطيع ان احمل ما انقذ من البيت . فقال روماس بمرح الطروب ، وغليونه بين اسنانه :

– ظننت انك مت وأني فقدتك عندما انفجر البرميل وتطاير كازه على السقف وانفجرت النار كأنها العمود المركوز بالأرض والمتصل بسقف الغرفة !

كان هادئاً كعادته في كلامه ، وكذلك عندما اخذ في تطبيق المتاع التي انقذناها ، فقال لأسكينا الحزينة :

– ابقي هنا لأحاول اخماد النار .

ثم نظر الى قطع الاوراق وهي تتطاير مع الدخان وقال :

– اخ ، الكتب ، يا للعار ! . . يا حبيبتي العزيزة . .

امتدت النيران لأربعة مساكن مجاورة لدارنا ، فاخذ الناس

يسرعون لانقاذهم ، بيوتهم ومتاجرهم واصواتهم في عويل :

ـ النار .. الماء .. انقذوها .

أقرب مكان لجلب الماء هو الفولغا ، فقسم روماس الفلاحين الى قسمين ليهدموا السياج الخشبي من هذا الجانب والبعض الآخر من ذاك . واتبعوا اوامره بكثير من الطاعة ، وكأنهم يناضلون بحذر ويأس . وانا ـ بطبعي المتحمس ـ شعرت اني اقوى مما كنت . ولاحظت في نهاية الشارع ثلة من الاغنياء بينهم كوزمين ورئيس الشرطة واقفين هناك يلوحون بعصيهم صارخين .. يا لهم من متفرجين كسولين ، لا يحركون ساكناً لمشاركتنا العمل .

واسرع الفلاحون على جيادهم مقبلين من الحقول المجاورة ، وندبت النساء بؤسها ، وتبعثر الاطفال فرادى وثنى . ولما امتدت النار اكثر عجّل الفلاحون في هدم جدار الزريبة بأسرع وقت ، والجمر والشرر يتطاير فوق رؤوسهم ، فيهربون منها ليعودوا من جديد . فصرخ بهم خوخول :

ـ لا تكونوا جبناء .

ولكنهم لم يأبهوا لقوله ، فاخذ قبعة من الارض ووضعها على رأسي وقال لي :

ـ قف انت في هذا الجانب لأذهب الى ذاك .

واخذنا ندفع الحاجز الى ان رميناه ، ثم اتى جمع الفلاحين وابعدوه عن مكان الحريق وتقدم روماس مني وسألني :

ـ هل اصابتك النار ؟

ـ كلا لقد تجنبتها ..

كان ينفخ في نعسي قوة ونشاطاً وسروراً واغتباطاً ، فأحاول دوماً الظهور امامه بالمظهر الذي يطلبه مني ، واعمل ما يرضيه . كنت افكر في هذا والورق المتطاير من النار يحفُّ برؤوسنا ، كأنه الحمام جاء ليودعنا . .

لم نستطع منع تقدم النار من اليسار ، مع اننا اخمدناها من الطرف الايمن فامتدت واحرقت عشر بيوت . ثم ترك النـــار وأمسك بي وسار مبتعداً ، فسمعت ، وانا أمر من امام جماعـة الفلاحين ، يقولون باستهزاء :

ـ انها جريمة حرق .

فقال كوزمين :

ـ يجب ان نبدأ تفتيش الحمام اولاً .

التصقت هذه الكلمات بنفسي وأهاجت ما بقي من قـوتي ، فأسرعت اعمل بلا هوادة الى ان خارت قواي ، ولم اعد أعي ما حلّ بي . . وحين أفقت من اغماءتي كنت جالساً على الارض ، متكئاً على شيء حامٍ ، بينما كان روماس يسكب عـلى وجهي الماء ، والفلاحون حولي يهمسون باعجاب :

ـ حقاً ان مكسيميتش قوي !

ـ نعم ، وصادق العزيمة .

فأمسكت رأسي بيدي وأخذت ابكي خجلاً . ولكن روماس ربت على شعري مطيباً الموقف قائلاً :

ـ استرح قليلاً ، لقد عملت ما فيه الكفاية

اقترب كوكوشكين وبارينوف مني وشجعاني على البقاء في

مكاني بوجهها المغبر وثيابها القذرة :

ـ لقد انتهى كل شيء ايها الاخ ، ابق هنـا حتى تحصل على كفايتك من الراحة .

وفعلاً ظللت في مكاني ممدداً انظر نحو جماعة الفلاحين الاغنياء وقد تقدموا من متاعنا . كان رئيس الشرطة في الطليعة ، وخلفه معاونان يقودان روماس من ذراعه المعراة من كمها . والجندي كوستين رافعاً عصاه ويصرخ بجنون :

ـ ارموا هذا الهرطقي في النار

ـ افتحوا باب الحمام .

فقال روماس بصوت عال :

ـ حطموا الأقفال لأني فقدت المفتاح

فقفزت على قدمي ، وحملت عصاي وذهبت الى جانب روماس فسار الحارس ليفتح الحمام ولم تمض برهـة حتى نادى استاروستا بصوته المرعب :

ـ لا يمكنكم تحطيم الاقفال ايها المؤمنون . انه محظر عليكم وتعاقبون عليه امام القضاء .

فأشار كوزمين إليّ صارخاً :

ـ أريد اعرف من هذا

فقال لي روماس :

ـ تمهل يا مكسيميتش. لاتخف ،انهم يظنونني خبّأت بضائعي في الحمام وأضرمت النار . وانبرى صوت من بين الرجال :

ـ حطموا الاقفال .

ـ نحن نجيب ايها المؤمنون .
ـ كلا نحن نجيب وليس انتم
وهمس روماس في أذني قائلًا :
ـ قف معي ظهراً لظهر حتى لا يضربونا على حين غرة
حطموا الاقفال ودخلوا الحمام ، ثم خرجوا منه سراعاً ، وقبل ان يتكلموا اعطيت عصاي ليـــد روماس ، وقبضت على غيرها ..
ـ لا يوجد هناك شيء .
ـ أبداً ؟ !
ـ يا للملاعين !
فقال أحدهم بتلكوء :
ـ .. لقد كنا مخطئين .
فأجابته أصوات عديدة بتوحش وبأوابد الكلام :
ـ ماذا تعني ؟ مخطئون ؟
ـ أقذفوهما بالنار .
ـ هؤلاء المشاغبون .
ـ مخترعو التعاونية .. هه هه هه .. !
ـ أيها اللصوص ، وبارؤساء الآثمين
فصرخ روماس بصوت جهوري اسكت الجميع :
ـ الهدوء ... لقد شاهدتم بأم أعينكم ان لا شيء بالحمام ابداً . فماذا تريدون اكثر من هذا ؟ لقد احترق كل ما املك ، وهذا ما استطعنا إنقاذه فشاهدوه . ماذا استطيع ان أكسب من حرق

بضاعتي ؟

– قيمة التأمين .

وتعالت الاصوات متوالية بعنف :

– ماذا تنتظرون ؟

– لقد انتظرنا الكفاية .

ومرة ثانية عادت الاصوات الى عنفها :

– ماذا ترقبون ؟

– لم يبق شيء .

ارتجفت ركبتاي هلعاً عندما وجدت وجوهاً متوحشة محاطة بالشعر المبلل . كانت أفواههم فاغرة ، فاجتاحتني موجة رغيبة لأضربهم ، فأحاطو بنا قائلين :

– ها .. ألديكما عصي ؟ ! ..

– عصي ؟ !

فقال روماس وقد عرفت من نغمته أنه يمازحني :

– يريدون ان يشدوا لحيتي ، وستنال نصيبك انت أيضاً .

– إنتبه إن بيد الصغير فأساً .

وبالحقيقة كان يحمل فأس نجار ، ولكني لم أعره انتباهـــا ، فهمس روماس بأذني :

– يبدو أنهم يريدون ان يدفئوا أقدامهم الباردة بالعراك . واياك واستعمال الفأس .

لم يسبق لي معرفة هذا الفلاح ، كان يسير وكأنه يحـــاول القفز بوجه غضوب وصرخ باعلى صوته :

ـ ارموهم بالحجارة ، وهذا اعظم درس تقدمونه لهم .

والتقط قطعة من القرميد كبيرة وضربني بها على بطني، وقبل ان ارد اليه الضربة هجم كوكوشكين عليه واخذ الاثنان يتصارعان ، ولم تمض لحظة حتى هرع الينا بانكوف وبارينوف والحداد ، وثلاثة عشر فلاحاً من صحبنا فاقترب كوزمين مني حالاً وقال :

ـ انك حكيم يا ميخائيلو انطونوفيتش ، تفهم ان النار تلهب رؤوس الفلاحين .

قال روماس آخذاً غليونه من فمه :

ـ تعال نحتس بعض الشاي في الحانة يا مكسيميتش .

وعندما تقدم كوزمين محاولاً ابداء ملاحظة ، التفت اليه روماس لفتة بسيطة وقال له :

ـ ابتعد يا حمار .

وحين عدنا وجدنا البيت ركاماً ، ولكن المطبخ لم يصبه اذى انما دخان أزرق عاتم ينبعث من مدخنته. فقال روماس متنهداً :

ـ لم يبق من الكتب شيء . . أسفاً عليك يا عزيزتي !

كان الصغار يخرجون بعصيهم بعض الاشياء من النار ، ويغطسونها بالماء ليلعبوا بها . ومن بينهم طفل، يبدو أنه موسيقي وممثل ، في الخامسة ، ذو عينين زرقاوين ورأس مزدوج . كان يدق على سطل عتيق بقطعة من خشب . وكأنه يتمتع بهذه الموسيقى الرقيقة في نظره .

واصحاب البيوت المحروقة يتجولون ساهمين ، محاولين العثور

على ما تبقى من مخلفات الحريق ، ونساء نادبات باكيات ، كن يتشاجرن على اشياء تافهة لا تغني من جوع . وفي البساتين الاشجار هامدة ، والاوراق صفراء ذابلة قد يبست من وطـــأة الحرارة ، وقطوف الفاكهة الناضجة دانية ، والوانها بين هذا الخراب زاهية .

هبطنا النهر واستحممنا فيه ، ثم جلسنا على ضفته صـــامتين نحتسي الشاي من الحانة قرب النهر . وقال روماس اخيراً :

ـ وعلى اي حال ، لقد خسر ذوو البطون المتخمة .

وجاء بانكوف وقد ظهر عليه انه يفكر ، وسأله خوخول :

ـ كيف حالك الآن يا بانكوف ؟

ـ كان البيت مؤمناً عليه ، أليس كذلك ؟

فساد السكوت لحظات ، وجلسنا كأننا غرباء ننظر الى بعضنا البعض بأعين ساهمة فاحصة :ا

ـ وما عساك تفعل يا انطونيتش ؟

ـ لم أقرر بعد .

ـ عليك بمغادرة هذه القرية .

ـ سأفكر بالرحيل .

ـ لدي خطة . فلنخرج من الحانة ونتحدث عنها خارجاً .

وغادرا المكان معاً . وعندما وصلا الى الباب صمت بانكوف قليلاً ثم قال لي :

ـ لست بالجبان أيها الشاب . يمكنك البقاء لأن الناس تخشاك وتخشى ان تخشاك .

ثم غادرت الحانة ايضاً ، وجلست عـــلى شاطىء النهر تحت

ظل شجرة شجراء أناظر النهر . كان الطقس حاراً رغم ان الشمس قد مالت للمغيب ورحت في بحر تفكيري سابحاً بماضي البعيد كأنه لوحات رسمت على قلبي .

ولكن شيخ النوم أبى ألا ان يلاطفني ، لما احس اني بشوق الى خلوفه فرحت في سبات عميق .

ـ استيقظ استيقظ .. أأنت مائت ، استيقظ .

كان القمر ورودياً كالدم القاني ، محاطاً بهالة من نور كأنه عجلة عربة . احسست ان بارينوف راكع على ركبتيه الى جانبي، يهزني من كتفي بشدة لطيفة تحت هذه السماء الصافية الكريمة ...

ـ قم ان روماس يبحث عنك ، لقد اضطرب لغيابك . . ليس من المستحسن ان تنام حيث تشعر بلذة النوم . افرض ان احداً رماك بحجر . احرص من اعدائك ، انهم لا يتربصون لك وسط الشارع ، انما يتحينون لك الساعات الملائمة في الامكنة الملائمة ليقتلوك بها .

ولاحظت احداً يتحرك وراء الدغل ، ما لبث ان ظهر من ورائها ميكان القوي وقال :

ـ هل وجدته ؟

ـ نعم ، وبصحته الجيدة .

وبعد ان سرنا قليلاً تنهد بارينوف وقال :

ـ لقد خرجت ثانية باحثاً عن الاسماك ومعي ميكان . لم يستسهل الحياة يوماً انما جعلها وعرة وصعبة .

وعندما وصلنا وبخني روماس توبيخاً لائماً اياي على تهاوني :

ـ كيف يمكنك ان تكون بهذا الاستهتار ؟ .. اتبحث عن المصائب ؟

ثم قال لي بهدوء بعد ان ذهب بارينوف بصوت حزين :

ـ سيعرض عليك بانكوف عملاً في حانوته الجديد، وانصحك بعدم قبول العمل ، واني بعد كل ما املك وسأرحل عن القرية الى قيادكا،وسارسل خلفك حالماً امكث هناك بامان،ونعود لنعيش معاً . اموافق ؟

ـ كما تريد .

ـ حسناً .

واستلقى على الارض بملل وما لبث ان غير وضعه مرات ، ثم ظل هادئاً . فجلست على النافذة اتطلع الى الفولغا وقدانعكست عليه اشعة القمر فشعشع برقة ، ولمع بحدة لكأنه وميض ثورة مدلهمة . ثم مر قارب بخاري بمحاذاة الشاطىء وهو يلطم سطح الماء بعجلاته الخلفية ، وثلاثة مصابيح على سواريه الثلاثة تسحق الليل بضوئها ، فتجعل الارض وكأنها السماء بنجومها الثلاثة تسير وتدور . وسألني روماس بصوت خفي:

ـ أتفكر بالثأر من الفلاحين؟ إن الخبث عندهم خلة يتميزون بها ، وهو طبيعتهم الخاصة .

لم تستطع كلماته أن تهدىء من ثورتي . ثم عادت على مخيلتي صورة الافواه الوحشية المحاطة بالشعر المبلل .. وهي تقذف سبابها وصراخها القذر .

ـ ابقوا بعيداً عنهم وارجموهم .

لم اتعلم حتى تلك الآونة ما يجب ان امحوه من ذاكرتي وأنساه . وبالحقيقة لم يكونوا خبيثين كلهم انما البعض منهم . وهم ، وان كانوا حيوانات ضارية فقلوبهم طيبـــة ، وبإمكانك ان ترى الابتسامة البريئة تعلو شفاههم ، ويصدقون بسهولة كما يصـــدق الصغير القصص الدالة على الحكمة والسعادة ، وقصص الاعمال النبيلة والكريمة .

ولكنهم حين يجتمعون فإن تلك السجايا تنبو عن انفسهم الطيبـة ويرتدون ثوب الاثم والخراب ، حتى لتشبههم بالقس ؛ يلبسون الثوب الطاهر ، وهم تحته ، بمكر وبهتان وكانوا يخضعون خضوع الاماء امام اقوياء القرية ، ولهذا لا يمكنك الا ان تكرههم ، وتظهر لهم انك عدوهم . واحياناً يكشرون عن انيـاب الذئاب ويصرخون في وجوه بعضهم .

وتراهم يتقاتلون لاتفـه الاسباب ، ويشقون الارض بمسعاهم وثورتهم . وفي الكنيسة يجتمعون في خضوع واحترام ، وفيهم الخطباء والشعراء ولكنهم كالبهائم المهملة المحتقرة .

- ٤٥ -

الرحيـــل

لا أستطيـع متابعة هذه الحياة والعيش في وسطها . وفي اليوم الذي افترقنا فيه قال لي روماس موبخاً :

– هل انت مرتاح الفكر ؟

– ولكن ما عساي ان أعمل اذا كنت اعتقد ذلك ؟

– ليس لتفكيرك أساس من الصحة .

وتحدث إلي ملياً بصبر رؤوف محاولاً ان يثبت لي اني مخطىء وان ما وصلت اليه بعيد تماماً عن الصحة :

– لا تكنْ متسرعاً في الحكم على الناس . فكر بعقلك وابتعد عن قلبك . واعلم ان كل مطلب يسير ببطء وعلى التوالي فلا بد من وصوله الى القمة يوماً . لا تخف امراً ابداً ، ولا تتسرع في الحكم ، والوداع ايها الصديق العزيز الى ان نتقابل من جديد .

وتقابلنا ثانية في سيدلوز بعد خمسة عشر عاماً ، وكان قد قضى عشر سنوات من هذه المدة في ياكوتسك منفيـــاً لنشاطه في حزب « نارود نوي رافو » . وعندما غادرني همتُ في أزقة القرية فاقداً شعوري ، ضائعاً كالكلب الذي فقد سيده .

واخذت وبارينوف نتجول في البـلاد . نعمـــل في اراضي الاغنياء ؛ ننزع البطاطا هنا ونقلم الاشجار هناك .

وفي احدى الليالي الماطرة قال بارينوف :

– يا أليكسي مكسيميتش ، يا ايتهـــا الروح المنعزلة ، الا ترى انه من الاوفق لي ولك ان نذهب الى ساحل البحر غـداً ، لا أرى لرحيلنا مانعاً ، خاصـة وهم لا يحبوننا هنا ، ولا يمكنك ان تعرف كيف يهيئون القلاقل لازعاجنا .

لقد سبق وعرض بارينوف هذا العرض ، وهو ذلك الانسان الضائع ، حتى لتحسبه بذراعيه الطويلتين غوريلا او إنسان الغابة .

كان المطر يهطل بقطرات ثقيلة على النافذة ، وبشكل ميزاب

رفيع من سقف الحمام ، والبرق الشاحب يلمـــع في السماء ، وسألني بارينوف بهدوء :

ـ ألن ننطلق غداً ؟ . .

وانطلقنا . . .

ـ ٤٦ ـ

امطار وأضواء

جلست بجانب حيزوم السفينة ، سابحاً في روائع ليالي الخريف ، والرجل الذي يدير دفة السفينة كان ضخم الجثة ، ساقـــاه عريضتان وثقيلتان ، وكان يغني وهو في وقفته :

هو روب . . روب . هورو . . ب

والماء يرتطم على جانبي السفينة بنعومة خشنة ، وكنت ترى فوق النهر غيوماً زرقاء خريفية ، وتشعر ان الظلام قـــد محا الشاطئين والارض حتى لتحسب انها ذابت وتحولت الى دخان وماء . والنهر يجري الى الامام . . الى مكان قصي حيث لا شمس ولا قمر ولا نجوم .

أمامنا قارب بخاري يحاول إرهاق قوى الماء التي تدفعه ، وثلاثة أضواء تعين مدى سرعته لنا ، اثنان مع سطح الماء والثالث في مكان مرتفع . وأربعة اضواء اخرى على السواري تحاكي الغيوم .

شعرت بنفسي كأني سجين داخل فقاعة زيت تنزل بي حسب مستوى مائل ، فأروح كالذبابة الضائعة ، وقـــد بدا لي ان كل

حركة تسكن رويداً رويداً ، ثم وقفت العجلات عن ضرب الماء اللزج ، واندمج السكون بنا ، وهدأنا هدوء رقراق المياه ، أو كأننا ورقة صفراء ترتعش ، والرجل الضخم يتمشى ذهاباً وإياباً في سترته المصنوعة من جلد الغنم المرقق ، وقبعته القذرة ، ثم توقف عن الحركة ايضاً ، ولم يعد يغني وسألته :

ـ ما اسمك ؟

ـ وما يعنيك ؟

أجابني بصوت خشن كصوت الدب ، وقد لاحظت وجهه في ضوء الشمس الآخذة بالشحوب عندما كنا نغادر قازان في الليلة الآفلة ، كأنه كتلة لحمية عمياء عن الحياة ، مغطاة بشعر كث ، ثم اخذ مكانه عند المقود بعد ان أفرغ زجاجة من الفودكا في قدح من الخشب وشربها كمن يشرب الماء ، والحقها بتفاحة .

وعندما دبّت الحركة بالسفينة أمسك بالمقود ، وتطلع الى الشمس وتمتم :

ـ على بركة الله . .

كانت سفينتنا احدى السفن الاربع التي يسحبها قارب بخاري من سوق « نجني نوفغورود » متجهة نحو استراخان . الاحمال : صفائح حديد ، اكياس سكر ، وبعض الاسلاك الثقيلة متجهة الى بلاد العجم . رفس بارينوف جانب الاسلاك ، وفكر قليلاً ثم قال :

ـ انها بنادق من صنع « ايزهيفسك » دون شك .

ولكن الرجل الضخم قال له :

– وماذا يهمك يا هذا ؟ ومن انت ؟

– انما افكر فقط

– هل ترغب في ان امزق شفتيك ؟

ولما كنا لا نستطيع دفع اجرة سفرنا فقد حملونا شفقة بنا. وعاملنا الجميع معاملة متسولين . قال بارينوف :

– الحياة بسيطة . اذا ركبتها اطاعتك، وان ركبتك فالجهل والخسارة يعمان ساعاتك .

كان الليل عاتماً حتى انني لم استطع رؤية القوارب النائية قليلاً ولكن أضواءها قد برقت . أزعجني سكوت الرجـــل الضخم، وأزعجني ايضاً ان الربان ارسلني معه لاساعده فكان يكلمني :

– هاي . . امسك .

فكنت اقفز لأساعده في ادارة المقود .

– كفى .

فأعود الى مكاني ، وأنا افقد كل محاولة للمحادثة معه :

– وما يعنيك من ذلك ؟

أية افكار كانت تشغل باله ؟ . . وعندما وصلنا الى نقطـــة اتصال نهرنا بنهر « كما » ، ذي المياه الصفراء ، ادار وجهه جهـة الشمال وقال :

– « سكوم » .

– من ؟

فلم يجبني . كانت الكلاب تنبح من بعيد لتنبئنا ان فيها بقايا من حياة . فكان الرجل الضخم يتكلم :

– تحوم الكلاب في أي مكان .
– أين ؟
– حيث ترى اليابسة عن جنبيك . وخاصة من المكان الذي ينبعث صوت الكلاب القوية .
– واين ذلك
– في فرلودكا.
ثم اردف بكلمات ثقيلة . من هـذا الذي معك ؟ عمك ! اظنه احمق . لي عم ماهر وشرير وغني ايضاً في « سن برسك » ويملـك حانة .
كان يمضغ كلماته ببطء ، ويبدو عليه انه اذا ما تكلم سيدفع باهظاً .
ثم سكت ليراقب المصباح الذي يشبه عنكبوتاً ذهبياً ناسجاً خيوطه في الظلام :
– امسك . هل تعرف القراءة ؟ .. ربما ، من يسن القوانين؟ ودون ان ينتظر مني جواباً واصل كلامه :
– يقول بعض الناس ان القيصر يسن القوانين ، وآخرون رئيس الاساقفة ، والبعض يعتقد ان مجلس الشيوخ يفعل ذلك . وإن علمت سانهّا فاني سأذهب اليه وأقول له « اذا كنت تكتب القوانين انت ، فاجعل القانون متيناً كالحديد ، وكالقفل والمفتاح أقفل به قلبي وانتهي من آلامي » .
ثم صمت وركن الى نفسه ، يقرع على المقود بقبضته القوية . وهتف احدهم بصوت أجش حسبتـــه عـــواء كلاب

خائفة في منتصف الليل .. ثم ضاع الصوت بين غياهب العتمة كأنما أكلته الذئاب الجائعة . وفيما السفينة تعوم قال الرجل الضخم بشيء من الانقباض :

- الى اين يأخذوننا ؟.. ان قلبي ينكمش .

ولم ادر لم اعتراني الود وعدم المبالاة . وكأني رغبت عن كل شيء من أجل النوم وقد راود النعاس اجفاني ، فطردته حين وجدت الفجر وقد زحف بتمهل ، كأنه يصارع الغيوم المهلهلة التي تحاول صده عنا . فأخذ يصول في مكانه محاولاً الفرار وقد درج في مهد الظلام العاتم ، وكل ما استطاع هذا القمر عمله هو أنه جلب لنا فجراً ورديا مشرقاً من الافق ، يعقبه صبح هادىء بليل ، رمادي ثقيل ، مع نسيم عليل هب رخاء على رؤوسنا فأحيى منا الفؤاد . فبان الشاطىء من هاته الاضواء كأنه خطوط رتيبة وأغصان ، تحاول صدنا بحلو انوارها ، سوداء من اشجار الصنوبر ، تبين أمامنا لتهدينا سواء السبيل .

ثم ظهر لنا صف من أكواخ القرية ، وأشباح فلاحين عن بعد كأنهم تماثيل مرمرية فحلق فوق رؤوسنا احد الطيور المائية بجناحيه الكبيرين . ثم جاء من يحل محلي ومحل الرجل الضخم ، فغفوت تحت الخيمة .

- ٤٧ -

انقذوا روحي

استيقظت بعد ان وضع النهار على خبط نعال ثقيلة تمر على ظهر السفينة ، فوجدت ثلاثة من البحارة ، وقد ربطوا الرجل الضخم على جدار القمرية ، فوقف أمامهم بذراعيه الموثوقتين الى صدره ، واصابعه المغروزة في لحم كتفيه ، وباحدى قدميه يضغط على حزمة من الاسلاك ، يطيعهم باحترام ، ثم رجاهم بصوته الخشن :

– اخلوا سبيلي أرجوكم ، دعوني أبتعد عن الخطيئة .

كان حافياً قدماً ورأساً ، يلبس بنطلوناً وقميصاً ، لم يمس كتلة شعره مشط طوال حياته ، يتهدل بعضها على جبينه العريض العتيد ، عيناه صغيرتان حمراوان تنظران باضطراب ورجاء . فقال له احدهم :

– سنرميك بالماء .

– انا ؟ .. أرجوكم دعوني أرتحل ، وان لم اذهب فاني سأقتله حال وصولي سن برسك ، سوف ..

– دعك من هذا

– آه ايها الاخوان !

وجثا على ركبتيه ، ومد ذراعيه الطويلتين فبان كأنه رجل مصلوب ، ثم عاد يلتمس الرجاء :

– ارجوكم .. أريد البعد عن الخطيئة .

كان صوته العميق يصدر عن قلبه ، وذراعاه الطويلتان تبدوان كأنهما مجذافان واصابعه ترتجف ، وايضاً لحيته التي تشبه (اللباد) .

كادت عيناه الصغيرتان المظلمتان تخرجان من محجريهما، وكأن يداً خفية تحاول خنقه . وبصمت ، تحرك الرجال من طريقه ، فوقف متأرجحاً على قدميه ، وحمل حزمته ، وشكرهم . ثم تخطى رصيف السفينة ، وقفز بخفة ، فأسرعت الى الحافة لارى رأس « بيتروفا » يهتز بالماء ، شاقاً طريقه فى النهر نحو الشاطىء الرملي .

وانحنت الاشجار على الضفة كأنها تعينه وتمد له اوراقها الصفراء ببشاشة . وقال أحد البحارة :

– وأخيراً لقد استطاع ان يتغلب على نفسه . فسألته :

– هل جُن الرجل ؟

– جن ! لا ، إنما يحاول انقاذ روحه .

وقف بيتروفا برهة عندما وصل الى الماء الضحل ، وأوداجه منتفخة ، ولوّح بحزمته ، فأجابه البحارة :

– الوداع .

وسأل احدهم :

– وماذا سيفعل دون جواز سفر ؟

– له عم في سن برسك نصب عليه املاكه ، فقرر ان يقتله تشفياً ، وهكذا تراه قدهرب من الخطيئة .. انه رجل وحشي، وذو قلب طيب .

- ٤٨ -

قصة مغامرات

استنتجت ان البحارة قوم طيبون ، وكلهم من اهالي الفولغا مثلي ، وفي المساء كنت أشاركهم المرح كأننا اصدقاء حميمون ، ولكن لم يصبح الصباح الثاني حتى لاحظت العيون وقد ملأها الشك بي ، وفهمت حالاً ان لسان بارينوف تغلب عليه . وأخذ يحيك لهم القصص فسألته :

– هل تكلمت شيئاً ؟

فحك رأسه خجلاً ، وابتسامة المرأة تعلو شفتيه وقال :

– انما قليلاً .

– أما قلت لك بأن تمسك ؟

– نعم هكذا فعلت ، ولكن القصة صحيحة تماماً ، وكنا بحاجة الى ورق لعب ولكن الرجل الضخم كان قد اخذه معه ، فحاولت تسليتهم ببعض الاقاصيص .

وبعض بضعة اسئلة علمت انه حاك – للتسلية فقط – قصة كلها مغامرات وهي أني وخوخول ، كأننا الغزاة الجبابرة ، القاس بيميننا ، نقاتل به جماعة الفلاحين للعبث .

وفي اثناء تجوالنا بحثاً عن العمل ، قال لي بعطف :

– الحقيقة ، يجب ان تجد الحقيقة بنفسك ، الحقيقة التي يطمئن اليها فؤادك ، ويشع بها هدوؤك . أنظر الى القطيع وهو يرعى والى جانبه كلبه والراعي . هذه هي الحقيقة ، حيث تجد الرجل

الصالح الصادق ، أما المراءون فتصطاد منهم كل صباح وامسية . ما زال الناس يحاولون اختراع الصالحين ،لأنهم قوم لم نرهم يوماً ، وما عرفناهم قط .

- ٤٩ -

الخـــاتمة

لما وصلنا سن بوسك أمرنا البحارة بكثير من الغضب أن نغادر السفينة ، واعلنوا لنا قائلين :

-- اننا لا نريد عمالاً على شاكلتكم ..

واخذونا بقُلُك صغير الى الضفة . وجلسنا هناك نجفف ثيابنا تحت أشعة الشمس ولم يكن معنا سوى بضعة دريهمات ، وذهبنا الى الحانة لنشرب الشاي :

ـ وماذا عسانا فاعلين ؟

فأجاب بارينوف بتردد :

ـ تفضل ؟ بلاد الله واسعة ، وما علينا الا ان نسير لنصل الى مبتغانا ..

وصلنا بسفينة الى سامارا ، ومنها أقلّتنا الى شواطىء بحر مزوين بمدى سبعة ايام . وهناك ـ والفقر يأكلنا ـ عملنا مع بعض صيادي السمك في مكان اسمه « كالميك » قرب « كابانكول بافي ».

تمت

المحتويات

	صفحة
سأذهب الى الجامعة	٧
جدتي العزيزة	٨
عاشق النساء	١٥
في ليلة ظلماء	١٦
النهر الحزين	١٩
المأوى التاريخي	٢٠
العالم المسلول	٢٢
هذا العجوز	٢٨
المطبعة السرية	٣١
المركب المحطم	٣٥
الندوة السرية	٤١
عنده حبيبة	٥١
الى جيلدا	٥٨
آلام الثورة	٦٦
النجدة .. النجدة ..	٦٩
الحب نوعان	٧٣
لقد خلعت قميصها	٨٠
ثورة جسمي	٨٢
ماتت جدتي	٨٣
الفكر الثائر	٩٢
الملحد !	٩٨
الهوى البائس	١٠٣
عدو حميم	١٠٦

صفحة

الحب عماد الحياة	١١١
رجل عظيم	١٢٠
الهجوم على الجامعة	١٢٢
الانتصار على الذات	١٢٧
الحياة هي المنحطة	١٢٩
حديث الثورة	١٣٩
حرية الفلاح	١٤١
استبداد القيصر	١٤٤
طلقة قبل منتصف الليل	١٤٧
اني ذاهبة الى الدير !	١٥٤
مهجع القسيس	١٥٨
يكرهون الحياة	١٥٩
المرطقي الأسود	١٦٨
النار الأول	١٧٠
القيصر الجزار	١٧٥
المغني الشاعر	١٧٦
ثورة على القيصر	١٧٨
قصة سرية	١٨٢
ماريا الجميلة	١٨٣
موت ايزوف	١٨٣
غرام في الخريف	١٨٧
النار الثانية	١٩١
الرحيل	٢٠٤
امطار واضواء	٢٠٦
انقذوا روحي	٢١١
قصة مغامرات	٢١٣
الخاتمة	٢١٤